ابق حياً
مهما كلف الأمر

هبة أسعد

ابق حياً
مهما كلف الأمر

رواية

دار الفارابي

الكتاب: ابق حياً مهما كلف الأمر
المؤلف: هبة أسعد

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ٣١٨١/ ١١ – الرمز البريدي: ١١٠٧ ٢١٣٠
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: شباط ٢٠١٨
ISBN:978-614-432-857-6

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة إلكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

الإهداء

إلى تلك الدماء التي انغمست في التراب فروت منها الأرض أكثر من غيوم السماء التي فاضت بالدموع؛

إلى أرواح ظنت أنها ستعود يوماً فباغتها الموت قاطعاً طريق الحياة؛

إلى آمال دهستها الحرب وطموحات حطمتها الظروف؛

إلى الوسائد التي دفن فيها النوم وخلق الحزن فيها الحرارة والماء فأنبتت بين طياتها الوجع.

عن سوداوية القدر حين تهنا في ظلامه لنضل طريقنا إلينا... عن أحلام دفنت تحت التراب وأخرى نقيم لها مراسم عزاء ساكنة... عن قلوب هاجرت مرغمة وأخرى لوثت نفسها بإرادتها... إلى متى ستبكي قلوبنا وأعيننا جبارة ترفض الخضوع مهما زادها جبروتها ألماً... عن كل تلك المشاعر الصاخبة التي رفضت أن نعبّر عنها لأحد وأبت أن تصمت... سيأتي يوم كما انتهت أو ضاعت في سابقته أحلام ستولد أحلام أبهى أو أقلّه ستتعرف أحلامنا إلى طريقها إلينا... سنصرخ فرحاً كما صرخنا

في الماضي حزناً... كما ركلنا أرحام أمهاتنا المظلمة بكل تلك الإرادة لنشق طريقنا إلى الحياة، سنركل كل عائق بإرادة أقوى لنكون كما نريد ونحيا كما نحب.

إلى وطني.....

هنا هدمت البيوت لتبنى الفتن

هنا يشرق الموت عوضاً عن الشمس فيهاجر القمر مذعوراً

هنا تُسكن الأرصفة وتموت المنازل من الحزن اختناقاً

هنا تزدهر المقابر بأجساد محبي الحياة وتزداد إعماراً

هنا حلت الحرب

«يا تراب كن حنوناً على من تعانق، فجميعهم خانتهم الحياة فالتجأوا إليك،

لا تخذلهم كما خذلتهم هذه الحرب، واجعل أرضك لهم وطناً رؤوفاً، فهم لم يشعروا بالحياة في الحياة، فليشعروا بها في الموت».

المقدمة

لا أحد يعلم ما تخفيه لنا متاهة الحياة... كدوامة تمضي.... ندور فيها بين الحب والفراق وما بينهما نتخبط في خليط من المشاعر البيضاء المكحلة بالسواد... كسرطان تدخل الحرب لتأكل منا ما استطاعت فتشبع رغبتها بنا دون أن تكترث لطول مواسم الدموع، التي كلما أوشكت على الانتهاء، تبرم معها عقداً جديداً للاستمرار.... شابت قلوبنا قبل رؤوسنا، لكننا ما زلنا نقاوم ضيق كل هذه الأرض بنا رغم اتساعها، لعلها تنشرح لنا يوماً، أو يأتي السلام للإفراج عنا أو حتى إلقاء التحية.

البداية

في عام ألفينِ وأربعةَ عشر في إحدى ليالي فصل الشتاء في قريةٍ من قُرى مدينة حمص السورية التي كانت تسكُنها عائلات مسيحية كانت الفتاة الحسناء يارا البالغة من العمر عشرينَ عاماً جالسةً في صالةِ منزلها مع والدتها أم جورج وشقيقتها ميرال التي كانت تصغُرها بثلاثِ سنوات.

كانت يارا تجلسُ وسط ميرال ووالدتها واضعةً حاسوبها المحمول أمامها على طاولةٍ صغيرة، ويشاهدن معاً بعض الصور لتسريحات الشعر الخاصة بالعرائس، حيثُ كانتا تُساعدانها على اختيار التسريحة الأجمل من أجلِ يومِ زفافها، الذي كان سيعقَد بعد يومين على الشاب، الذي أحبتهُ منذُ الطفولة «راني»، دون أن تعلم ما الذي يخبئه لها القدر، فبقدر الأمل يأتي الألم، لكن مهما اشتد الألم فإن الأمل لا يموت.

***

لقد كان جورج الشقيقُ التوأم ليارا وراني خطيبُها يجلسان معاً يشربان الشاي الساخن في غُرفتهما في إحدى القطع العسكرية التابعة للجيشِ السوري التي لا تبعُدُ كثيراً عن قريتهما، حيث أمضيا

طفولتهُما معاً، وكانا من أبناء حيٍّ واحد، ويعيشان في منزلينِ متجاورين، وبعد انتهائهما من مرحلة الدراسة الثانوية انضما معاً إلى قوات الأمن العسكري برتبة صف ضابط.

كانت ليلةً باردة سوادها أدكن، تحيك في ظلماتها مؤامرة خبيثة تنشرُ رائحة الموت في ثناياها، حيث كان رجال إحدى المجموعات المسلحة المعارضة يقومون بمحاصرةِ القطعة العسكرية التي كانت تقعُ في منطقةٍ نائية بكلِ هدوءٍ وحذر لاقتحامها، وكانت عبارة عن مساحة واسعة يحيطُ بها سورٌ، ولها بابٌ رئيسي تحتوي على سياراتٍ عسكرية ودبابةٍ وفيها عددٌ من الغُرَف الخاصة بالضباط والعناصر.

***

اختارت يارا تسريحة شعرٍ جميلة تناسب شعرها الطويل الانسيابي بمساعدةِ والدتها وشقيقتها، ثُمَّ دخلت إلى غُرفتها ووقفت أمامَ النافذة تنظُرُ إلى نافذةِ غُرفةِ راني التي كانت مقابلةً لنافذةِ غُرفتها، وتبعدُ عنها حوالى ثلاثةِ أمتار وتتذكرُ الأيامَ التي كان يقفُ فيها هو أيضاً أمامَ النافذة يُحدثُها عبر الهاتف، وينظُرُ إليها حيث كانت أياماً هادئة يزينها السلام.

ترقرقت الدموعُ في عينيها وهي تنظُرُ باتجاهِ تلكَ الغُرفةِ البائسة الظلماء التي كانت نوافذُها مغلقة وأنوارها غير مضاءة، وكأنها ترتدي ثوب الحداد بسبب غياب مالكها عنها، ثُمَّ أخرجت هاتفها النقال من جيب سروالها القطني وحاولت الاتصالَ بهِ لكن دونَ جدوى، فقد كانت شبكةُ الاتصالِ ضعيفةً بسببِ بدء تساقُط الأمطار

والطقس السيِّىء، فقامت بإرسالِ رسالةٍ لهُ تقولُ فيها: «لقد اشتقتُ إليك كثيراً، إني أنتظرُ قدومكَ غداً بفارغِ الصبر، اعتنِ بنفسكَ جيداً أنت وأخي فلا جمالَ للدنيا من دونكما، لقد حاولتُ الاتصال بكما كثيراً لكن دون جدوى...

أحبك».

ثم خلدت إلى النوم.

***

كان أربعة عناصر للحراسة يجلسون بالقربِ من باب القطعة العسكرية الرئيسي، وفوق جدار السور القريبِ منهُ يجلسُ عنصرٌ للمراقبة في غرفةٍ صغيرةٍ بالكادِ تتسع لهُ.

دخلَ أحدُ العناصرِ الأربعة الجالسين بالقُربِ من الباب إلى غُرفةٍ صغيرةٍ في جواره وقامَ بإعداد إبريقٍ من الشاي، وأخرجَ من جيبهِ كيساً صغيراً، وقامَ بوضعِ البودرة الموجودة فيهِ داخلَ الإبريقِ وتحريكها لتذوبَ داخلَه جيداً.

ثُمَ خرجَ وهو يحملُ الإبريق وبيدهِ كؤوسُ فارغةٌ، وأخذَ يصُبُّ الشاي فيها ويوزعُه على عناصر الحراس الجالسين بالقربِ من الباب، كما أعطى كأساً للحارس الجالسِ في غُرفتهِ الصغيرة فوقَ السور، لم يرفض أحد منهم الشرب وأثنوا عليه لإعداده مشروباً ساخناً في هذا الجو البارد، فقد ظنوا أن قلوبهم ترتجف من شدة البرد دون أن يعلموا أنها ترتعشُ خوفاً من شيء ما سيحدث.

أما الحُراس الذين شربوا الشاي فقد غطوا في نومٍ عميق بينما قامَ ذلك الحارس بإرسالِ رسالةٍ إلى قائد المجموعة التي حاصرت القطعة مخبراً إياهُ أنهُ يستطيعُ الدخولَ مع رجالهُ من الباب الرئيسي.

أشار قائد المجموعة إلى بعضِ رجالهِ للدخولِ معهُ من الباب الرئيسي، وكانوا يرتدون ألبسة سوداء، ويضعون حول جباههم شرائط سوداء مكتوبٌ عليها «الله أكبر» باللون الأبيض، ذلك الشعار المقدس الذي شوهه الإجرام بالتخفي تحت اسم الإسلام، في حين كانت لحاهم طويلةً بالكادِ تبين وجوههم منها.

***

كانَ راني يقطعُ البطاطا لقليها وجورج يساعدُهُ على إعداد العشاء دون أن يعلما بسوء مصيرهما القادم وبؤسه، فقد كانَ رجالُ المجموعة المسلحة قد تمكنوا من محاصرةِ القطعة العسكرية بشكلٍ كامل.

وعندما انتهى من التقطيعِ أمسكَ هاتفهُ النقال وأخذَ يقرأُ رسالة يارا مبتسماً، ثُمَّ حاولَ الاتصالَ بها لكن دون جدوى بسبب سوء الشبكة، بينما أشعل جورج موقدَ الغاز واضعاً فوقهُ إناءً يحوي زيتاً للقلي.

أخذ راني يكتبُ رسالةً ليرسلها إلى يارا وجورج جالسٌ في جوارهِ حين بدأت أصواتُ إطلاقِ النارِ تملأُ المكان. فقد كانَ المسلحون يطلقون الرصاص على كُلِ شيءٍ أمامهم.

لقد كانَ الرصاصُ أشدَّ غزارةً من المطر الهاطل، ورائحةُ البارودِ تفوحُ أكثر من رائحةِ الرطوبةِ التي تنبعثُ من التربةِ عند اختلاطها بالمطر، فوضع راني هاتفه في جيبهِ وتحركَ مُسرعاً، ونظر من النافذة ليتحقق مما يحدُث ليشاهدَ الرجال المسلحين يدخلونَ إلى القطعة من جميعِ الاتجاهات.

اتجهَ راني مُسرعاً نحو جورج الذي كانَ جالساً على الأرض يجهز سلاحهُ للدفاع عن نفسهِ وقالَ لهُ خائفاً: سيقتلوننا إنهم قادمون.

ردّ جورج وهو بالكادِ ينطقُ الكلمات مرتبكاً: ماذا سنفعل؟.

راني: سنضع حداً لحياتنا، لكن لن ندعهُم يمسكون بنا أحياء، إن أمسكونا سيعذبونا حتى نتمنى الموت.

اخترقَت الرصاصات نوافذَ غُرفةِ جورج وراني وأمسكَ كُل منهما بُندقيتهُ ليقتلا نفسيهما قبل أن يقعا ضحيةَ الأسر في حين سمعا صوت أحدهم يتحدثُ عبر مكبرِ صوتٍ قائلاً: من أراد أن ينضمّ إلينا ليتجرد من سلاحه ويأتي نحوَ الساحة بالقربِ من الدبابة، ومن يرفض هذا فهو ميتٌ لا محالة، فنحنُ نحاصرُ المكان بأسره.

نظرَ جورج إلى راني وقال وقلبهُ يكادُ يخرج من جسده من قوةِ نبضاته: هل نسلمُ نفسينا؟.

رد راني محتاراً: لا أعلم.. أنا لا أثقُ بهم، ربما يقتلوننا، فهم تكفيريون ونحنُ بنظرهِم كافران.

جورج: لن نخبرهم بأصلنا وسنغيرُ اسمينا ونتركَ كُل ما يخصُنا من أوراقٍ هنا.

تذكرَ راني لقاءهُ الأخير يارا أمام عتبة منزلها حينَ عانقتهُ وهيَ تذرفُ دموعها، وفي عينيها ألف حكاية خوف وشوق، فقد كان هو بالنسبةِ إليها معنى الحياة قائلة: ابقَ حياً مهما كلّفَ الأمر.

فمسح دموعها برفق: إذا خذلنا اللقاء ولم أعد لا تحزني، فكما فرقتنا حرب هذه الأرض سيجمعنا سلام تلك السماء.

فكانت آخر كلماتها المبللة بالدموع قبل أن يناديه جورج ليستقلّ سيارة الأجرة التي أحضرها: المجد للموت إن هجرت أنت الحياة.

نقره جورج على كتفه ليأخذه من شروده مرددا: ماذا سنفعل؟؟؟؟؟؟؟؟

فرد قائلاً: حسناً، سأسمي نفسي أحمد وأنت محمد، ونحنُ أصلُنا من دمشق وأحضرونا هنا للخدمةِ الإلزامية.

توقفَ إطلاقُ النار بعد أن سيطرَ الرجال المسلحون على أغلب القطعة وقاموا بقتلِ الضباطِ والعناصر، ولم يسلم منهم سوى المتآمرين معهم وقائدهُم يردد عبر مكبر الصوت «لديكم خمس دقائق لتسليم أنفسكم للانضمامِ إلينا وإلا مصيركُم الموت».

فنهضَ جورج ليذهبَ لتسليمِ نفسهِ فأمسكهُ راني من ذراعهِ بقوة قائلاً: انتظر.

ثُمَّ زحفَ نحوَ موقدِ الغاز وأمسكَ بالإناء الذي كانَ الزيتُ يوشكُ فيهِ على الغليان بقطعةٍ من القماشِ وطلبَ من جورج أن يكشفَ عن ذراعهِ الموشومة بإشارة الصليب.

نَظَرَ جورج إليهِ بخوف: لماذا؟؟؟؟.

راني: علينا التخلصُ من الإشارة التي على يدكَ وعلى يدي، وإلا قطعوا أيدينا أو قتلونا إن شاهدوها، عليكَ تحمُلُ الألم دونَ أن تصرُخ.

كشفَ جورج عن ذراعهِ وقامَ راني بسكبِ بعض الزيتِ مكانَ الإشارة وراني يعضُّ على يدهِ الأُخرى من الألم وتكادُ شرايينهُ تخرُجُ من وجههِ الذي أصبحَ أحمر كلون الدماء، وقد امتلأت عيناهُ بالدموعِ من شدةِ الألم وراني ينظُرُ إليهِ مُتحسراً على حاليهما.

ثُمَّ قامَ بسكبِ بعضِ الزيت على ذراعهِ في المكان نفسه وجلدهُ يذوبُ من شدةِ الألم وهو يتذكرُ يارا التي كانت قد وشمت في المكانِ نفسه من ذراعها الوشمِ نفسه الذي وشمهُ كُل منهما، وكم كانا سعيدين حينذاك.

ثُمَّ غطيا ذراعيهما وكل منهما بالكادِ يستطيعُ تحريكَ ذراعهِ من الألم. وقبلَ خروجهِ من باب الغُرفة قام راني بركلِ موقدِ الغاز المُشتعل كي لا يستطيعَ أحدٌ من المسلحين معرفةِ هويتهما الحقيقية عند دخولهِ إلى غُرفتهما، وأخرجَ هاتفهُ النقال من جيبهِ ملقياً بهِ أرضاً.

أخذت النيران تأكُلُ الغرفة بينما كان كل من جورج وراني يتجهان نحوَ المسلحين رافعين ذراعيهما، وكلٌ منهُما تشتعل النارُ في قلبهِ حُزناً على مصيرهما المجهول، وهما ينظران إلى جُثث أصدقائهم وزملائهم المنتشرة على الأرض حيث أنّ كل واحد منهم كان يتوقُ للعودة إلى المنزل من دون أن يعلموا أن وداعهم الأخير

كان الوداع الأبدي. كانا ينظرانِ إلى الدماء التي اختلطت رائحتها برائحةِ المطر والتي تلونت بلونها الأمطار الملامسة للأرض؛ ففي موسم الحرب تكون دموع السماء سخية على الرغم من أن كل شيء يكون شحيحاً كالفرح والراحة والاستقرار. حتى الحياة تصبح أنانية بخيلة تسلب روحها من الكثيرين كأنها تشعر بثقل كل من يمشي على أرضها. فهل تتشكل الأمطار من الدموع التي يظن صاحبها أنه كلما كان سخياً بها انتابته الراحة! إذا كانت عظمة الحياة التي قدمنا لها كل شيء لنتمتّع بها لم تقدم لنا سوى الموت فكيف ستقدم الدموع الراحة!!!! أم أنها تتشكل من تبخر الدماء التي استباحت التراب وأصبحت جزءاً منه، ربما هي من الدماء التي تختبئ خلف الدموع فكيف للبحر أن يكون سخياً وقد أصيب بنهم لكل من أراد عبوره فأصبح واحداً من أولئك الذين أوكلت إليهم الحياة قبض أرواح سكانها.

وقفَ جورج وراني في جوار ثلاثةِ شبان كانوا قد سلموا أنفسهُم أيضاً وقلوبهم تناجي ربها حزناً آملين أن يكونَ ما حدث غير حقيقي وعيونهم تلمع الدموع فيها لمأساةِ ما حدث، فأخذَ قائدُ المجموعة ينظُرُ إليهم بينما طلبَ من بعضِ رجالهِ الانتشار في جميعِ أرجاءِ القطعة والقضاء على من بقيَ حيّاً فيها من العناصر والضباط.

ثُمَّ أمر بتكبيل الأسرى ووضعهم في إحدى السيارات المفتوحة من الخلف برفقة بعضِ من جنودهم، وقامَوا بنقلهم إلى موقعهِ الذي

كانَ في القرية المُجاورة لقرية راني وجورج آخذين معهم السيارات العسكرية والدبابة.

كانت الدموعُ تترقرقُ في عيني راني وهوَ يفكرُ في يارا التي تنتظرُ قدومهُ في الغد من دون أن تعلم أنهُ لن يستطيع القدوم، وأنه ذاهب إلى المجهول والتي كانَ ينتظرُ أن تزفَ لهُ عروساً بعد يومين، وبوالدتهِ التي ليسَ لها غيرهُ بعد وفاةِ والدهِ متأثراً بجروحه جراء أحد الانفجارات التي ضربت مدينة حمص، وأكثرُ ما يؤلم قلبهُ تلكَ الجثث الغارقة في الدماء والتي كانت كُلها لشبابٍ في عُمرِ الورد تنتظرهم أمهاتهم وزوجاتهم وربما أطفالهُم.

لقد كان جورج يذرفُ الدموعَ وهو يرتجف دون أن يقوى على تصديقِ ما حدث، وأنه ربما لن يرى والدتهُ وشقيقتيهِ مرةً أخرى.

***

احترقت غُرفةُ راني وجورج تماماً وانتقلَ الحريقُ إلى أحد خزانات الوقود المجاور للغرفة ما تسبب بانفجارهِ، واندلاع واسعٍ امتدَ ليحرقَ مُعظم القطعة العسكرية والجُثث المرمية أرضاً لتصبح تلك الأجساد المرهقة رماداً يصعب التعرف منه إلى ذويها.

***

حلَّ الصباح خائفاً مما سيراهُ من حزنٍ وقلوبٍ سيلوعها هجر أرواحٍ أحبتها هذه الدنيا حاملاً معهُ أنباء الفراق الأبدي، كانت أم راني جالسة تتناولُ فطورها وتشاهدُ إحدى قنوات الأخبار في حين

تحدثت المُذيعة عن المأساة التي حدثت ليلة الأمس، وأكدت خبر وفاة جميع العناصر والضباط الذين ينتمون إلى تلك القطعة العسكرية واحتراق جثث مُعظمهم.

صُدمت أم راني من الخبر ولم تستطع تصديقَ أنها قد فقدت ابنها الوحيد، فخرجت من المنزل متجهة نحو منزل المختار وهيَ تبكي وتصفعُ وجهها بكفيها قائلة: ابني.. ابني... وحيدي.

شاهدتها يارا من النافذة وخرجت مُسرعةً من منزلها نحوها وتبعتها شقيقتها ووالدتها.

ووقفت بالقرب منها وهي تلهث قائلة: خالتي أم راني ما بكِ؟

نظرت أم راني إلى يارا واقتربت منها معانقةً إياها وهي تبكي والألم يُقَطعُ روحها وهي تقول: فليكن الربُ معنا يا ابنتي.

ملأَ الذُعرُ قلبَ يارا وقالت بصوتٍ بالكادِ يخرجُ من فمها من شدةِ الخوف: ماذا حدث؟

كانت أم جورج وميرال تقفان في جوار يارا وهما مُتخوفتان مما ستقولهُ أم راني التي كفكفت الدموعَ في عينيها ونظرت إليهنَ جميعاً وهنَّ يترقبنَ ما ستقول، ثُمَّ قالت بصوتٍ باكٍ حزين: لقد هاجم المسلحون القطعة العسكرية وقتلوا كل من فيها وأحرقوهم.

ثُم انهمرت دموعها وجلست أرضاً ولم تعد تقوى على الوقوف، فجلست يارا إلى جانبها وهي مدهوشةٌ دون أن تنطُقَ حرفاً، وهي لم يستوعب عقلُها ما هذا الذي تسمعهُ، فهي تترقبُ عودتهُ مع شقيقها، فكيف لعقلها أن يصدق أن أنياب الحربِ قد

سرقت روحيهما الشابتين البيضاوين ولم تترك منهما سوى جثتين من رماد، وأخذت تنظُرُ إلى والدتها التي أُغميَ عليها وعلى ميرال التي تحاولُ إيقاظَ والدتها وهي تبكي.

تجمع الجيرانُ حولهن وقاموا بمساعدةِ أم راني على النهوض وإيقاظ أم جورج ثُم أخذاهما إلى منزل أم جورج بمساعدةِ ميرال، أما يارا فكانت لاتزال جالسة تنظُر إلى ما يحدُث وكأنها في حلمٍ تنتظرُ منهُ الانتهاء، وأمسكت إحدى جاراتها بها لمساعدتها على النهوض لكنها رفضت مساعدتها ونهضت وحدها عائدةً إلى المنزِل ومن ثُمَّ دخلت إلى غُرفتها وأخرجت ثوب الزفاف من الخزانة وأخذت تمزقهُ بيديها وهي تبكي وتصرخ قائلة: لاااااا..... لاااااا.

دخلت ميرال إليها مُسرعة وانتزعت الفستان من بينِ يديها ثُمَ عانقتها طالبةً منها أن تهدأ ويارا تبكي وتقول: سأقتلهُم كما قتلوني... اللعنة عليهم.. يا إلهي أنا لا أصدق... ساعدني يا الله.

ثُمَ فقدت وعيها وسقطت على الأرضِ كما سقطت أحلامها قبلها؛ خرجت ميرال مسرعة لتجد أحد جيرانهم المدعو أبا الياس واقفاً بالقرب من باب الغرفة بملامحه البائسة التي يتملكها الحزن كذلك جلس الجيران يهونون ألم الأمّين الذي لا توجد قوة في الأرض قادرة على إخماده، وقالت وهي تلهث باكية: عمي أبا إلياس لا أدري ما الذي حدث ليارا ساعدني.

دخل أبو الياس الغرفة مسرعاً وقام بحملها ووضعها على السرير، وراح يصفعها صفعات خفيفة على وجهها، ثُمَّ أمسك

زجاجة العطر المجاورة للسرير وأخذ يرش على يده ويقربها من أنفها لكنها لم تستيقظ، فنظر إلى ميرال قلقاً: إبقي في جوارها ريثما أحضر الطبيب.

اقتربت منها ميرال واحتضنتها وحبالها الصوتية يكاد يقطعها الأنين وهي تقول: يا الله.... يا الله... الرحمة يا الللللله.

وعندما وصل الطبيب قامَ بوخز يارا بإبرةٍ مُهدئة ووصف لها بعض الأدوية لتتحسن حالها.

***

بعد مرور شهر من الألم والحزن.....

في صباح أحدِ الأيام استيقظت يارا ونفضت عن نفسها غُبارَ الألم المتراكم فوقها من وقع انهيار آمالها، ثُمَّ نظرت إلى وجهها الشاحبِ في المرآة وسرحت شعرها الطويل ثُمَ أخذت تجدلُهُ وهي تتذكر كيفَ كان شقيقها التوأم جورج يُسرحُهُ لها ويقومُ بتجديلهِ، وعندما انتهت أمسكت المقص وقامت بقصِ جديلتها كاملة ووضعتها فوقَ إطارِ صورةِ راني على الحائط، فهو كان يحبهُ طويلاً ويرفضُ أن تقصهُ، ثُم نظرت إلى صورتَيْ راني وجورج المتجاورتين وابتسمت لهما ابتسامةً بائسة ثُم قالت: سأنتقمُ لكما حتى لو كانَ الموتُ مصيري فلا حياةَ من بعدكما.

خرجت من غُرفتها ونظرت إلى أم راني وميرال ووالدتها وهنَّ يجلسنَ في الصالة يتناولن الطعام فنظرن إليها بوجوههن اليائسة

مستغربين قصر شعرها، ثُمَّ غسلت وجهها وجلست إلى جانبهن تتناولُ الطعام وجميعهن يرمقنها بنظرة تعجب بعد أن أمضت شهراً لم تخرج فيه من غرفتها ولم تجلس مع أحد.

مسحت أم راني على كتفها برفق قائلةً بحسرة: حبيبة قلبي يا يارا.

بقيت يارا صامتة على الرغم من حبها الشديد لأم راني وكأنها قد نسيت كيف تعبر عن مشاعرها لمن حولها بعد الانعزال الذي كانت فيه، أو لأنها قد أفرطت في الإفصاح عن حبها لشخصين ظنت أن الموت قد علم بقدر حبها لهما فسرقهما منها.

***

كان راني وجورج جالسين إلى بعض الرجالِ يأخذون درسَ دينٍ عند أحد الشيوخ الذي كانَ يُحرضُهم على القتلِ والأعمالِ الانتحارية، ويفتي بما لا ينصُّ عليهِ دين الإسلام، لكن راني كانَ شارداً مهموماً يفكرُ كيفَ سيخبرُ والدتهُ ويارا أنهُ وجورج على قيدِ الحياة بعد أن انقطعت كل سبل الوصول، كانت كل نبضة تقتلع قلبه بقوة ثم تعيده إلى مكانه كلما فكر في الأسى الذي تسبب به غيابه لهما.

بينما كان جورج حزيناً يتمنى لو أنهُ يستطيعُ العودة إلى حياتهِ السابقة يتذكر رائحة القهوة التي كانت تنبعث من المطبخ كل صباح ممزوجة برائحة الياسمينة المجاورة لمنزلهم، ويخفق قلبه ألماً عندما تمر في باله يارا وميرال عندما كانتا تقومان بإيقاظه رغماً

عنه بمداعبتهِ أثناء نومه، وأكثر ما يؤلمه والدته التي كان يبدأ يومه بابتسامتها ودعواتها له.

***

أنهت يارا تناول الفطور وخرجت من المنزل حيث كان أهل القرية يفاجأون بقصر شعرها فيلقون عليها التحية مشفقين فترد عليهم بعدوانية كما لم يعتادوا تصرّفاتها من قبل، وكأن حطامها قد أطلق قوة كان يكبتها اتحادها؛ فالسقوط قد أودى بها إلى بداية كانت باعتقادها هي النهاية، بداية كان فيها كل جزء متشظ يملك اندفاعاً وقوة لم يكن يملكهما كيانها المتحد، توجهت نحو مكتب المسؤول عن اللجان الشعبية المسلحة المسؤولة عن حماية القرية وطلبت منهُ الانضمام إليهم لكنهُ رفضَ في البداية، وبعدَ إصرارها وتوسلها إليهِ وافقَ على طلبها لكنهُ بقيَ قلقاً بشأنها، فقد قررت خلع رداء أنوثتها لتكون شكلَ امرأةٍ بقلبِ رجل.

***

وفي المساء كانَ راني يجلسُ على سطحِ مبنى المحكمة الشرعية التابعة للمسلحين حيثُ يوجد مركز الفتاوى وإصدار العقوبات بحق المخالفين للأوامر وكان ينظُرُ إلى قريتهِ التي يستطيعُ رؤية أنوارها ومنازلها في الأفق، ويتمنى لو أن تلك الأنوار تجذبه لتعيده إليها، لكن هروبهُ هو وجورج وعودتهما كان أقرب إلى المستحيل لأن

القرية التي هما فيها كلها تابعة للمجموعات المسلحة، والحراسة فيها مشددة.

صعد جورج وجلسَ إلى جانبِ راني وتنهدَ بعمق قائلاً بصوتٍ خافت: ليتنا متنا في تلكَ الليلة ولم نأتِ إلى هُنا لنكون أمواتاً نتنفس.

نظرَ راني إليهِ والحزنُ يغمرُ قلبهُ وقال: ليتني أستطيعُ العودةَ إلى قريتي ورؤية أحبتي قبل أن أموت بين هؤلاء القذرين.

عادَ بعضُ المُسلحين في سياراتهم يحملون معهم أعداداً من قتلاهم، وطلبَ أحد العناصر من راني وجورج المُساعدة على نقل الجرحى إلى المشفى الميداني الذي كان في جوار المحكمة والاعتناء بهم، وهذا المشفى كان في الأساس مدرسةً ابتدائية لكنهم أغلقوا أبوابها أمام طلابها لخدمةِ مصالحهم والاعتناء بجرحاهم.

كانَ هناكَ بينَ الجرحى شابٌّ مصابٌ برصاصٍ في الصدر يلتقطُ أنفاسهُ الأخيرة في المشفى، أتت زوجتهُ واسمها سمية وهي في السابعة عشرة من العُمر وأخذت تبكي في جوارِ سريرهِ وهي تحتضنهُ قائلة: أرجوكَ لا تمُت، فلم يعُد لي غيرُك بعد وفاةِ عائلتي.... أرجوك يا مُهند استيقظ.

فارقَ مُهند الحياة وأخذت سُمية تبكي بحرقةٍ على فراقهِ متوعدةً بالانتقام بينما كان راني وجورج يشاهدان ما يحدُث ولا يعلمان هل عليهما الحُزن أم الفرح.

***

وفي اليوم التالي علمت أم جورج من جارتها أم الياس التي كانت في زيارتها خبر انضمام يارا إلى اللجان المقاتلة الشعبية، فدخلت مُسرعة إلى غُرفتها وشاهدت ابنتها تحتضنُ صور شقيقها وحُب طفولتها وهي تبكي، مسحت يارا دموعها وتظاهرت بالقوة أمامَ والدتها ووضعت الصور تحتَ وسادتها.

اقتربت الأم من ابنتها وقالت بحُزن: هل صحيحٌ أنكِ انضممتِ إلى اللجانِ المقاتلة في القرية؟

يارا: نعم.. أريدُ أن أثأرَ منهُم جميعاً.

ثم جلست الوالدة بالقربِ منها ومسحت على وجهها بلطف قائلة: أرجوكِ يا أمي لا تفعلي هذا، تعلمين كم أحبُكِ، لا أريدُ أن أخسركِ أنتِ أيضاً.

انهمرت الدموع من عيني الوالدة وكفكفت يارا دموع والدتها بيديها وهي تقول: إن لم أنتقم منهم سأموتُ قهراً وحسرة، دعيني أفعل هذا أرجوكِ.

عانقت الأمُ ابنتها بقوة قائلة: إني أرى النورَ من عينيكِ... إني أرى جورج من خلالكِ، فأنت نصفه الآخر والروح التي كانت في أحشائي انقسمت بينكما عند الولادة.

انفجرت يارا باكية وقالت: سأعتني بنفسي لا تقلقي... لكن لن أدعَ دمَ جورج وراني يذهب هباءً... أرجوك يا أمي فأنا لن أذهب إلى الجامعة ثانية وسأقتل نفسي إن بقيت في غرفتي أفكر في ما جرى... سأموت اختناقاً بخيبتي.

الأم: اهدئي يا حبيبتي.. اهدئي... لا أريدك أن تعودي إلى تناول الأدوية النفسية.. افعلي ما شئت لكن كفى بكاء.. وعديني أن تبقي بخير لأجلي.

يارا: أعدك يا أمي... أعدك.

***

كانت ميرال تتابع دراستها في مدرسةٍ تقعُ على أطرافِ القرية، وكانت سُمية زوجةُ الشاب مهند صديقتها تقيمُ في قريتها المُجاورة لقريةِ ميرال التي يسيطرُ عليها المُسلحون، لكن ميرال لم تكن تعلمُ أن سمية كانت متزوجة من أحدِ المسلحين، وأن لها علاقةً بهم.

طلبت سمية من ميرال أن تسمحَ لها بأن تقيمَ معها في منزلها في فترةِ الامتحانات النصفية لأنها لن تستطيعَ أن تدرس في أجواءِ قريتها الفوضوية وغير المستقرّة راجيةً موافقتها، فطلبت ميرال منها أن تُمهلها بعض الوقت ريثما تأخذُ رأي والدتها وشقيقتها دون أن تعلم أن هذه هي الخطوة الأولى لسمية للانتقام.

وبعد انتهاء الدوام المدرسي عادت ميرال إلى المنزل وجلست تتناولُ وجبةَ الغداء مع والدتها بحضور يارا، وعند انتهائها نظرت إلى والدتها حيث كانت مُرتبكة وقالت: هل يُمكنُ لصديقتي سمية أن تقيمَ معي هنا عند بدء الامتحانات الفصلية.

نظرت يارا إلى شقيقتها بغضب والحقدُ يشعُّ من عينيها ثُم قالت: سمية؟ التي تنتمي إلى تلك القرية المليئة بالخونة.

ردت ميرال حزينة: هي ليس لها ذنبٌ بهذا، أرجوكِ أختي لا ترفضي.

نظرت الأمُ إلى ميرال وقالت: حسناً حبيبتي أحضريها.

ثُمَّ وضعت يدها فوق يدِ يارا ماسحةً عليها بلطفٍ وقالت: لا تكوني قاسية يا صغيرتي.

يارا: حسناً كما تريدان، لكن إياها أن تُزعجني بشيء فسأقتُلها.

فرحت ميرال بموافقةِ والدتها ويارا فذهبت مُسرعةً إلى غُرفتها وأرسلت رسالة من هاتفها النقال إلى سمية لتخبرها بموافقةِ أهلها على أن تأتي لتقيم معها عند بدء الامتحانات.

***

تلقت سمية الرسالة بعد ساعات بسبب ضعفِ خدمةِ شبكةِ الاتصال في قريتها ثُم ذهبت إلى القائد لتخبرهُ بهذا وتتفق معهُ على بعضِ الأمور.

كانَ راني وجورج يقفان على بابِ مقر القائد للحراسة، وعندما أنهى القائد حديثهُ مع سمية طلبَ منهُما الدُخول، ليُحدثهما بأحدِ الأمور، وأمرَ رجلين بالوقوفِ مكانهما.

كانَ شكلُ جورج وراني قد تغيرَ، فقد كانا يرتديانِ ثياباً سوداء كبقية الرجال وقد استطالت لحيتاهما وشحب وجهاهما من الهمِ والحزن.

وعندما دخلا إلى مجلسِ القائد جلسا أمامهُ فنظرَ إلى جورج

قائلاً: يا محمد، أنت شابٌ ذو خُلقٍ عظيم، ولم أشهد انحرافاً في سلوكك أنت وأحمد مُنذُ قدومكما إلينا.

نظرَ جورج وراني كلاهما إلى الآخر مرتبكين مُتخوفين لما سيطلبهُ القائدُ منهُما، فأكملَ القائدُ قائلاً: لذا نحنُ نعتبركُما قد أصبحتُما منا من الآن وصاعداً، وعلينا تزويجكما من فتياتنا وإسكانكما في بيوتنا لتكملا نصف دينكما.

ردَّ راني مُرتبكاً: لكنني مُتزوج ولا أُريدُ الزواجَ من أُخرى.

غضب القائد قائلاً: يحقُ للرجل أن يتزوجَ أربعَ زوجات، وإن هذا فيهِ خيرٌ وحسناتٌ لهُ ولهن خصوصاً إذا كنّ أرامل لشهداء عُظماء عندئذ سيتضاعفُ أجرهُ وثوابهُ عند الله.

صمت كُل من جورج وراني ثُمَّ ردَّ جورج خوفاً منهُ بأن يؤذيهُما: أمرُكَ سيدي، أنا وأحمد سنفعلُ ما شئت.

لم يدرِ راني ماذا يقول فنكّسَ رأسهُ قائلاً: أمرُك سيدي.

ابتسمَ القائدُ قائلاً: بارك اللهُ فيكما، إن عقدَ قرانِ محمد سيكون الليلة وسيسكنُ مع زوجتهِ في منزلِ زوجها الشهيد أبي قتادة رحمهُ الله، أما أنتَ يا أحمد فسنؤجل عقد قرانك ريثما تعودُ الفتاةُ التي سنزوجك إياها من مُهمتها والتي هيَ أيضاً زوجةُ شهيدٍ عظيم.

وبعد أن أنهى القائد حديثهُ خرجَا وجلسا في غُرفتهما الصغيرة المجاورة لمجلس القائد والمحكمة الشرعية، فقالَ راني بصوتٍ خافت وهو غاضب: ما هذا الذل، إني أتحملُ كُل هذا لأعودَ إلى

يارا ووالدتي، والآن يريدون أن يزوجوني غيرها، وربما أموتُ ذليلاً قبلَ رؤيتها.

ردَ جورج حزيناً: وماذا أقولُ أنا الذي سيعقدُ قراني الليلة، ليتنا متنا قبل هذا.

***

في المساء عُقدَ قرانُ جورج على أرملةِ أحدِ المسلحين المدعوة أمل، وقامَ أحدُ رجالِ القائد بإرشادهِ إلى منزِلها لأنها أصبحت زوجتهُ وهو لا يعرفُ حتى شكلها.

طرقَ الرجلُ باب المنزل فنادت هي من خلفِ الباب: من الطارق؟.

الرجُل: لقد عقدَ القائدُ قرانكِ الليلة، ولقد أحضرتُ لكِ زوجكِ.

فتحت أمل الباب قليلاً وهيَ تقفُ خلفهُ وقالت بصوتٍ يغصُّ بالبكاء: ادخل.

دخلَ جورج وأغلقَ الباب خلفهُ ثُمّ نظرَ إليها وهي واقفةٌ أمامهُ خائفة تكادُ الدموعُ تسقُطُ من عينيها؛ لقد كانت فتاةً جميلةً في التاسعة عشرة من العُمر.

نظرَ جورج إليها قائلاً: لماذا أنتِ خائفةٌ وحزينةٌ هكذا؟

فردّت وهي توشكُ على البكاء: اطلب ما تريد وسأفعل.

استغربَ جورج تصرفاتِ أمل التي بدت كأنها مجبرةٌ على هذا

القران وقال: أنا لا أريدُ منكِ شيئاً، ولن أؤذيكِ، لقد جئتُ إلى هُنا بأمرٍ من القائد وسأجلسُ قليلاً حتى لا يتعجب من عودتي المسرعة ثُمَّ أرحل.

مسحت أمل الدموعَ التي تساقطت من عينيها واطمأنَ قلبُها من كلامِ جورج، وكأن عبئاً ثقيلاً قد أزيلَ من فوقِ قلبها، فطلبت منه الدخولَ إلى الصالة ريثما تعدُّ العصير.

جلسَ جورج على الأريكة الموجودة في الصالة، بينما أحضرت العصير وقدمت لهُ كأساً وهيَ تنظُرُ إليهِ وإلى الحزنِ الواضحِ في عينيه، ثُمَّ جلست أمامهُ على الأريكة المقابلة لهُ وقالت بصوتٍ خافتٍ مُتعب: لماذا أنت مُختلف عنهُم؟

جورج: أنا لستُ مختلفاً، ولماذا أنتِ خائفة وكأنكِ مجبرةٌ على عقدِ هذا القران؟

أجابت أمل والذعرُ يملأُ قلبها: سأفعلُ ما تريد لكن أرجوكَ لا تخبر القائد.

جورج: يمكنكِ أن تُحدثيني دون خوف، فأنا أعدُكِ أن لا أخبرَ القائدَ بشيء.

ردت أمل حزينةً: لقد زوجني والدي من أبي قتادة رغماً عني، فقد أقنعهُ القائد أن هذا عملُ خيرٍ لهُ ولي لأنني سأكونُ زوجةَ مجاهدٍ وسيأخذُني معه إلى الجنة عند استشهاده.

ثُمَّ أخذت تبكي، فجلسَ جورج في جوارها وأخرجَ منديلاً من جيبهِ وطلب إليها أن تمسحَ دموعها.

استغربت أمل لُطفَ جورج وقالت لهُ: أنتَ حقاً لطيف، كيفَ بوسعكَ أن تكونَ معهُم وأنتَ لطيفٌ هكذا، فهم لا يعرفون الرحمة.

ضحكَ جورج ببؤس قائلاً: وأنتِ لستِ معهم؟.

أمل: في الحقيقة أكرههم، لكن إياكَ أن تُخبر أحداً أرجوك.

وقفَ جورج مُستعداً للذهاب، فأمسكتهُ أمل من ذراعهِ قائلة: يُمكنُكَ أن تبقى، فأنتَ لم تخبرني شيئاً عنك.

جورج: اسمي محمد ويلقبني القائد بأبي عُمر وعمري عشرون عاماً، وأنا لا أريدُ منكِ شيئاً، وإذا احتجتِ إلى أيِ شيء فأنا أقطُنُ في الغُرفة في جوارِ القيادة مع صديقي.

ثم خرجَ من المنزل وأمل تنظُرُ إليهِ وهي شديدةُ الإعجابِ به وبمعاملتهِ الحسنة.

***

كان راني مستلقياً في الغرفة تأخذه الذكرى إلى حيث كانت روحه تتوق لأن تعود، هناك حيث كان ينهي يومه بوجوه كان الأمل ينطلقُ إليه عبرها يتقلب في سريره أرقاً، لكنه لم يكن أرقاً للنوم بقدر ما كان أرقاً للحياة.

دخل جورج فنظر إليه راني قائلاً بسخرية يغلب عليها الحزن: هل أعجبتك عروسك؟.

فرد مبتسماً: اسخر مني لكن دورك لن يطول أيها المتيم.

أخذ جورج يخبره بالحديث الذي دار معه في منزلِ أمل،

وعندما انتهى قال راني مُتحمساً: رُبما ستساعدُنا على التواصلِ مع عائلاتنا.

رد جورج حزيناً: الأفضلُ لنا أن لا نتواصل مع أحد.

رد راني باستغراب: لماذا!!!.؟

جورج: لقد متنا بنظرِ عائلاتنا والأفضلُ أن لا نخبرهم بأننا على قيدِ الحياة إلا إذا استطعنا الخروجَ من هُنا، فإذا أخبرناهم قبل أن نخرج فسيفرحون بهذا وإذا متنا حقاً ونحن هُنا قبل أن نراهم فسيكونُ حزنهم أشد.

خفض راني رأسهُ حزيناً: أنت محق، لن نتسبب لهم بهذا الألم مرتين.

***

كانت يارا تنظُرُ من نافذتها نحو حديقةِ المنزل مبتسمة وقلبها يحترقُ من لوعةِ الفراقِ، وهي تتذكرُ كيفَ كانت تلعبُ في طفولتها مع جورج وراني، وكيفَ كانت تجلسُ جانباً وتبكي عندما يمنعانها من اللعبِ معهما حتى يأتي راني ويمسحُ دموعها ويسمحُ لها باللعبِ رغماً عن جورج.

ثُمَّ استلقت على سريرها وأخذت تبكي وتبكي حتى أنهكها البُكاءُ وغرقت في النوم.

***

في الصباحِ أعدّت أمل الفطور وطلبت من أحد الأطفالِ الذي

كانَ ماراً في الشارع الذي أمامَ منزِلها أن يذهبَ لإخبار محمد أي جورج كي يأتي.

لبّى جورج دعوةَ أمل وجلسَ يتناولُ الفطور معها، وهيَ تنظُرُ إليهِ بين الحينِ والآخر وهو يتناولُ الطعام دون رغبة ثُم قالت لهُ: ألم يُعجبكَ الطعام؟

جورج: بلى.

أمل: لكن لماذا أشعرُ أنكَ تتناولهُ من دون رغبة؟

جورج: لقد اعتدتُ تناولَ الطعامِ مع صديقي، كما تذكرتُ عائلتي، فلقد اشتقتُ إليهم كثيراً.

اقتربت أمل من جورج وجلست في جوارِهِ وهي تنظُرُ إلى الدموع التي ترقرقت في عينيهِ وهو يحاولُ إخفاءَ حُزنه، فمسحت بكفي يديها على وجههِ وعانقتهُ وهي تقولُ لهُ: لا تحزن أرجوك.

كانت الدموعُ تُذرفُ من عيني جورج وعانقَ أمل بدوره وهو يبكي بصمت، وكأن روحهُ كانت تتوقُ إلى حنانٍ فقدهُ منذُ مُدة وقلبهُ متعطشٌ لعناقٍ كهذا.

ثُمَ أبعدَ ذراعيها عنهُ بلطف ونظرَ إلى عينيها المليئتين بالدموع التي غمرت خديها فقام بمسحها برفق، فقالت له:

- أشعرُ أنك قد ظُلمتَ مثلي.

- ربما أجاب جورج، فتابعت قائلة:

- أخبرني ما قصتُك، أعدُكَ بأن لا أُخبرَ أحداً.

أخذ جورج يُخبرُ أمل بقصتهِ هو وراني وكانت الغصات

المحزونة تعلقُ في حنجرتهِ بينَ الحين والآخر، فلم يكُن هناكَ شيءٌ يُخففُ عنهُ ألمهُ سوى عودتهِ إلى قريته، كانت تُبدي تعاطفاً لحالهِ وتحاولُ أن تواسيهِ، ثُم طلبت منهُ أن يذهبَ ويجلبَ راني ليتناول الطعام معهُما.

سُرَّ جورج بطلبِ أمل وأحسّ بأنها ستكونُ هي الدواء الذي سيُخفف عنهُ وجعهُ في غُربتهِ عن أهلهِ التي يعيشُها ضمنَ جزءٍ من وطنهِ.

***

كانت يارا تتدربُ على حملِ السلاحِ واستخدامهِ بمساعدةِ أحدِ الشبانِ الذين يعملونَ في لجانِ المقاتلة الشعبية.

ومع الأيام أصبحت فتاةً قويةً صلبة تحكُمها عقيدةُ الانتقام، بدأت تدريجاً تخرُجُ مع مجموعةٍ من الرجال في مهام لحراسةِ أطرافِ قريتهم المحاذية لقرية المسلحين، وأحياناً كانت تخرجُ مع فريقٍ من الرجالِ المقاتلين كمؤازرةٍ لفرقِ الجيشِ التي كانت موجودة في القُرى المجاورة لقريتها عند تعرُضهم لهجوم.

كانَ بعضُ الرجالِ يتعجبونَ من قوتها واندفاعها، لم يكونوا على علم أن تلك الفتاة المسكينة هي شبحٌ من بقايا ماضٍ أليم لم يتبقَ لهُ شيء يخشى فقدانهُ.

***

أصبح جورج وأمل متحابين كثيراً حيث كان زواجهما بلسماً يخفف من آلام الجروح التي سبقته، فوجد جورج من يُهونُ عليهِ بعده عن عائلته وينسيه، ولو قليلاً العذابِ الذي يمرُّ بهِ، دخل إليها ذات ليلة ليجدها جالسة على الأريكة في شرود منعها من القدوم إليه وعناقه كما اعتاد أن تفعل عند عودته إلى المنزل، اقترب منها بقلق ومسح على كتفها برفق فارتعدت ثم نظرت إليه وعانقته قائلة بكلمات بين الشوق والبرود المحير: حبيبي آسفة لم أنتبه لقدومك فردّ ممازحاً.

- ما الذي يشغل بال أميرتي إلى هذا الحد، إذا كنت قد مللتِ حبي فسوف أذهب.

فردت بلهفة: لا... لا يمكن أن أملَّ حبك، فأنت الرحمة التي أنزلها الله رأفة بي... لكنني أخاف أن أفقدك لا قدّر الله... أخاف من يوم أنتظرك فيه ولا تعود أو أن تتخلى عني بسبب اختلافنا... في كل صلاةٍ لي أدعو لك، فأنا لا أشعر بالسكينة إلا وأنت إلى جانبي... إنه شعور قد فاق الحب.... عدني أن....

لم تستطع إكمال كلامها لأن الدموع خنقت الكلمات وكانت الغصات أفصح تعبيراً من كل تلك المشاعر، قرّبها منه أكثر وهي تعانقه ولو استطاع لخبأها داخله كي لا يفترقا أبداً، وتمتم في أذنها بصوته الذي يغدو أكثر حناناً عندما يحدثها: ما بكِ يا روحي... ما بكِ.. لماذا كل هذا الحزن... لن أخرج من هذه القرية إلا وأنت

معي اطمئني... وسأبقى سالماً طالما أنت تحبينني وتدعين لي في صلواتك.

نظرت إلى عينيه بينما هو يتأمل جمال رموشها بعد أن غمستها الدموع ونطقت بما كان يقلقها: أنا أحمل طفلنا في أحشائي.

ارتبكت نظراته مندهشاً وسبق الحزن الفرح إلى قلبه، لم يكن يخشى أن يكون أباً بقدر ما كان يخشى على ابنه من القدوم إلى الدنيا في ظل كل تلك العقبات التي يواجهها وخصوصاً بعده عن قريته وعائلته، فقالت أمل حزينةً:

– لقد حدث ما خشيته، أعلم أنك لست سعيداً... كم تمنيت لو رأيت الفرح في عينيك عندما أخبرتك.

ثم طأطأت رأسها: سوف أتخلص من الجنين.

أمسك يدها وقبّلها: لست حزيناً.. لا أريدك أن تتخلصي منه، فهل هناك أجمل من أن ينجب الرجل طفلاً من امرأة يحبها... أنا فقط قلق جراء الظروف التي نعيشها هنا.

ردت والأمـل يتلألأ في عينيها: حقاً لن تكون حزيناً إن أنجبته!!!!!؟؟؟؟.

جورج: لا يا أملي... سأعد أنا العشاء الليلة.

و توجه إلى المطبخ بينما بقيت هي جالسة والفرح يتوهج منها.

***

كان راني وحيداً أسيراً لذكرياتهِ القديمة حيث بقيت روحه

حبيسةً منذُ ذاكَ اليومِ المشؤوم وقلبهُ لم يغادر منزلَ والدتهِ وحبيبتهِ اللتينِ كانتا أغلى ما لديه، كان آخر لقاء له بيارا الذكرى التي لم تبرحه خصوصاً قبل نومه (ابق حياً مهما كلف الأمر) تلك كلماتها التي تعطيه القوة للنهوض كلما باغته الانكسار وحاصره اليأس، يتساءل في نفسه عن كمية الحزن الممزوج بالخيبة التي اجتاحتها عند تلقيها خبر استشهاده، كم من الدموع قد ذرفت بسببه وهو الذي كان يخشى عليها من البكاء، أكثر ما يؤلمه هو اللهفة التي كان يراها تزداد في عينيها كلما اقترب يوم زفافهما (ترى ماذا صنعت مضادات كل تلك المشاعر بها؟) لم يكترث للأسى الذي شعر به بقدر خوفه ممّا سيكون قد صنعه الحزن في والدته وحبيبته.

***

حانَ وقتُ الامتحانات النصفية في المدارس وحزمت سمية بعض أمتعتها وكُتبها مودعة بعينيها صورة زوجها مهند وصعدت في مركبة عامة أوصتلها إلى الطريقِ العامِ لقريةِ ميرال التي كانت تنتظرُها هناك لتقلّها إلى منزلها.

عند وصولهما قامت بتعريفِها إلى والدتها التي رحبت بها كثيراً واستقبلتها بوجهٍ بشوشٍ، وجلستا إلى المائدة التي جهزتها أم جورج بينما خرجت هي لتخبر يارا التي كانت تسقي الأزهار في الجهة الخلفية من حديقة المنزل.

استوقف الوالدة صوت ابنتها العذب وهي تغني:

هالأسمر اللون هالأسمراني
تعبان يا قلب خيو وهواك رماني
يابو عيون وساع حطيت بقلبي وجاع
يا بو عيون وساع حطيت بقلبي وجاع

تمزق قلب الأم عندما جلست ابنتها على الأرض وأخذت دموعها تنهمر عندما كررت الشطر الثالث من الأغنية، كانت أعلم بقلب ابنتها التي مهما تظاهرت بالقوة فإنها لا تحمل في داخلها سوى قلب طفلة هش، حتى أنها كانت تخفي حزنها على ابنها الوحيد جورج لتذوب روحها من البكاء في خلوتها كل يوم كي لا تزيد من حزن ابنتيها خصوصاً يارا.

مسحت دموعها عندما رأت والدتها تقترب منها ونهضت عن الأرض.

الوالدة: هيّا يا ابنتي لتناول الفطور.

قبلت رأس والدتها: لست جائعة يا أمي، لدي عمل بعد قليل.

الوالدة: جاءت صديقة شقيقتك، ألقي التحية وتناولي بعض الطعام لأجلي.

يارا: إذا كان هذا لأجلك فلا يمكنني أن أرفض.

نظرت سمية إليها متفاجئة عندما دخلت مع والدتها وهي ترتدي زيّها العسكري ثُمَّ أخذت تكلمُ ميرال وتبتسم لتخفي الحقدَ الذي في قلبها.

ألقت يارا تحيةً جافة على سمية التي ردت عليها وهي تبتسمُ ابتسامةً كاذبة ثُمَّ جلست تتناولُ الطعام معهن.

***

دخلت سمية مع ميرال إلى غُرفتها وأخذت هذه الأخيرة ترتب ثيابَ سمية التي أحضرتها معها في قسمٍ من خزانتها، ثُم أخبرتها أنهما ستنامان على السريرِ الذي في الغُرفة معاً لأنه يتسع لهما.

كانتا تذهبانِ معاً إلى الامتحانات، وكانت سمية تراسلُ يومياً في المساء شاباً اسمهُ علي من محافظةِ حماة يتابع خدمتهُ العسكرية الإلزامية في مدينةِ حمص عن طريق تطبيق الواتس أب، وكانت تُخبرُ ميرال بأنهُ حبيبُها وأنهما سيرتبطانِ رسمياً عما قريب.

***

لم تكن يارا تشعرُ بالطمأنينة حيال ضيفتهم لكنها كانت تحاولُ أن تُعاملها جيداً من أجلِ شقيقتها الصغيرة.

في مساء أحدِ الأيام قبل آخرِ يومٍ من الامتحانات المدرسية، كانت سُمية جالسةً في الغُرفةِ وحدها تكلمُ القائد، بينما كانت ميرال تساعدُ والدتها على إعدادِ وجبةِ العشاء، وكانت يارا متجهة نحو غُرفتها حين سمعت صوتَها تُكلمُ أحدهم عبر الهاتف، فوقفت خلفَ البابِ لتسمعها تقول «غداً سأُنهي كُل شيء... راسلني عبرَ الواتس أب بما أن شبكةَ الاتصال جيدة، أخشى أن يسمعني أحد».

ارتابَت يارا مما سمعتهُ وملأَ الشكُ قلبها من تلك الفتاة لكنها

تصرفت كأنها لم تسمع شيئاً، فدخلت إلى غُرفتها وبدلت ثيابها وهي تفكرُ ما الذي يجب عليها فعلهُ لتعلمَ ما الأمر.

***

كانت أم راني تجلس في الصالة وقد أعدت فنجانين من القهوة كما اعتادت أن تفعل عندما يأتي راني لعل تخيله بأنه موجود معها يخفف من وجع الوحدة الذي تعيشه بعد أن فقدته كما فقدت زوجها في الحرب؛ لقد سبقت الدموع التي كانت تغزو عينيها قرع جرس الباب، فاتجهت بخطواتها البطيئة نحوه لتجد يارا تقف خلفه، فطلبت منها الدخول وأخذت تقبلها، فهي غالية على قلبها كما راني.

نظرت يارا إلى فنجاني القهوة الممتلئين باستغراب، فقاطعت أم راني نظراتها قائلة بحسرة: لقد حلمت عندما غفوت منذ قليل أن راني هنا، ويريد مني أن أعد له فنجاناً من القهوة.

غرقت يارا في شرودها بعد أن سمعت هذه الكلمات فأخذها تفكيرها إلى شرفة منزلها حيث كانت تجلس يوماً مع راني تشرب القهوة، وعندما أنهت فنجانها أمسكه مبتسماً وأخذ يتمعن في النظر إليه متظاهراً أنه يقوم بقراءته قائلاً: لديك في فنجانك حرف الراء، يبدو أنك تحبين شاباً يبدأ اسمه بهذا الحرف.... إنه لا يحبك.... بل مجنون في كل تفاصيلك... سوف تنجبين منه أربعة أطفال سيحبهم كثيراً لأنكِ والدتهم، لكنه سوف يتخلص من كل طفل تفضلينه عليه...

قاطعت شرودها أم راني وهي تقول: يارا... هل أنت بخير؟.

ابتسمت وردت بصوت مخنوق يقاوم البكاء: أجل بخير لا تقلقي، هيّا جئت لآخذك لتناول العشاء معاً.

وقبل خروجهما تناولت أم راني مفتاحاً من على الطاولة وأعطته إلى يارا قائلة: إنه مفتاح راني، لقد نسيه هنا قبل ذهابه، أظنه كان يعلم أنه لن يعود، أبقيه معك ويمكنك الدخول إلى المنزل متى شئت بدون قرع الباب فهو منزلك الثاني.

أمسكت المفتاح بحزن ووضعته في جيب بنطالها القطني الذي ترتديه.

***

إلى مائدة العشاء كانت يارا تجلسُ إلى جانبِ أمِ راني تناولها الطعامَ بيدها وتمازحُها لعلها تستعيدُ صحتها ونورَ وجهها الذي انطفأ بعدَ خبر وفاةِ ابنها،محاولة أن تتظاهرَ بالقوةِ رغم قلبها المُحطم وروحها المشوهة بعد خسارتها شقيقها التوأم الذي كان فراغ الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه عند تناول الطعام كفيلاً بإشعال النار في كل زاوية من زوايا قلبها وحب طفولتها الذي لطالما انتظرت هي وهو أن يكبرا لتربطهما علاقة رسمية.

وبعد الانتهاء ابتسمت يارا ونظرت إلى سُمية قائلة: هل الواتس أب على هاتفكِ النقال مُخزنٌ على بطاقةِ الذاكرة أم على ذاكرةِ الهاتف؟

سمية: على بطاقةِ الذاكرة، لكن لماذا؟

يارا: هلّا تُعطينني بطاقةَ الذاكرة لأنسخَ التطبيقَ على هاتفي النقال القديم؟

سمية: حسناً.

أخرجت سُمية بطاقة الذاكرة من هاتفها النقال وأعطتهُ إلى يارا التي أخذتهُ ووضعتهُ في هاتفها القديم وقامت بنسخِ التطبيق وإعادة الكرت فوراً.

لم تكن سمية تعلمُ أن كُل المحادثات الخاصة بها سوفَ تنسخُ أيضاً مع التطبيق الذي نسختهُ يارا وتصبح على هاتفها النقال، وأن غايةَ يارا من هذا العمل أن تعرفَ ما الذي تخططُ لهُ وتخفيه.

***

دخلت يارا إلى غُرفتها وفتحت التطبيق لترى أن آخر محادثة كانت مع شخصٍ يضعُ صورتهُ على ملف التعريف للبرنامج، وكان يبدو من لباسهِ ولحيتهِ وهيئتهِ أنهُ ينتمي إلى مجموعة مسلحة متشددة.

فوجئت وارتعش قلبها خوفاً وأخذت تقرأُ المحادثة لتجد أنّ سمية قد اتفقت معهُ على أنها ستقابل الشاب العسكري علي في اليوم التالي بعد انتهاءِ امتحانها في أحدِ أطرافِ قريةِ ميرال القريبة من قريتها، وأن هذا الرجل سوف يرسل مجموعة مسلحة لأخذِ هذا الشاب وأسره في قريتهم.

ارتبكت يارا وغضبت غضباً شديداً، ثُمَّ أمسكت هاتفها النقال

واتصلت بقائدِ اللجان الشعبية في قريتها، وعند إجابته قالت بصوت خفيض: مرحبا، كيف حالك؟.

القائد: الحمد لله وأنتِ؟

يارا: أريد أن أراك فوراً لأمر مستعجل.

القائد: عشر دقائق وسأكون عند منزلكِ.

يارا: لا.. سوف آتي أنا إليك وعندما أصل أشرح لك لماذا.

القائد: حسناً أنا في انتظارك في المقر.

***

خرجت من المنزل وهي تحاولُ أن تتصرف على طبيعتها كي لا تشُكَّ سُمية بأنها قد اكتشفت أمرها، وذهبت إلى مكتبِ قائدِ اللجانِ وأخبرتهُ بما حدث والخوف والحقدُ يجريان في عروقها بدلاً من الدماءِ.

أخبرَها بأن تتصرف بشكلٍ طبيعي، وأن تتركَ كل شيء يسيرُ وكأنها لا تعلمُ شيئاً، وطلب منها القدوم إليهِ في الصباح الباكر لإعداد كمينٍ مُحكم في تلك الأرض وقتلِ جميعِ الرجالِ المسلحين الذين سيأتون لخطفِ الجندي وقتلِ سمية معهم.

***

عندما عادت إلى المنزل وجدت ميرال وسمية تشربان العصيرِ على الشُرفةِ، فنظرت إليهما مُبتسمة ولو كان الأمرُ بيدها لاقتلعت

قلبَ سُمية بيديها وقامت بتمزيقه، ثُمَّ نظرت إلى ميرال قائلة: غداً عودي بعد الامتحانِ على الفور فأُريدُكِ أن تذهبي معي لشراءِ بعض الحوائج من المدينة.

ثُمَّ نظرت إلى سمية وأكملت كلامها قائلة: وأنتِ سمية يُمكنُكِ المجيءُ معنا إن رغبتِ.

ردت ميرال قائلة: حسناً لن أتأخر.

***

بعد أن دخلت يارا إلى غُرفتها، نظرت سُمية إلى ميرال غاضبة وتحدثت إليها بصوتٍ خافتٍ قائلة: ألن تذهبي معي من أجلِ رؤيةِ علي؟ سوفَ يحضرُ صديقهُ من أجل أن تتعارفا.

ميرال: لا أدري فأنا خائفة وأخبرتُ يارا أنني لن أتأخر.

سمية: لا تخافي لن نتأخر، سننهي امتحاننا باكراً ونذهب ولن يرانا أحد لأننا سنقابلُهم بعيداً عن المنازل.

ردت ميرال مرتبكة: حسناً.

وافقت وهي قلقة بشأنِ هذا وغير مطمئنة لكنها لم تُرد إغضاب صديقتها.

***

وفي صباحِ اليومِ التالي استيقظت يارا باكراً على صوتِ الساعة المنبهة، وغسلت وجهها ثُمَّ هيَّأت نفسها للذهابِ إلى المُهمة، لكن

قبل مغادرتها إلى منزلها دخلت إلى غُرفةِ جورج وفتحت خزانتهُ والدموعُ ترقرقت في عينيها وأخرجت قبعتهُ الشتوية، عانقتها وشمت رائحتها بعمق ثمّ اعتمرتها، توجهت بعد ذلك إلى منزلِ راني وفتحت البابَ بالنسخة التي أعطتها إياها أم راني لأنها لم ترد أن توقظها، دخلت إلى غُرفتهِ بهدوء ونظرت إليها بتمعن وإلى تفاصيلها الحزينةِ بعد غيابه، فتحت باب خزانته ونظرت إلى ملابسهِ وهي تتذكرُ جمالَ هذه الثيابِ على جسدهِ الرُجولي الصلب، بدأت الدموعُ تتساقطُ من عينيها، ثُمَّ أخرجت وشاحاً كانَ يُحبُّ ارتداءهِ دوماً ولفتهُ حولَ عُنقها، ثم كفكفت دموعها عن خديها وغادرت المنزل مُغلقةً البابَ خلفها بلطف.

***

استيقظ جورج من نومهِ ونظرَ إلى أملِ التي كانت نائمةً في جوارهِ وطبعَ قبلةً رقيقةً على جبينها ثُمَّ نهضَ فأمسكت ذراعهُ بلطف وفتحت عينيها ببطء وقالت بصوتٍ يغلُبُ عليهِ النُعاس: ابقَ أرجوك.

فنظرَ إليها بحزن قائلاً: عليَّ الذهاب في مهمةٍ بعد قليل مع راني وبعض الرجال.

نهضت أمل وعانقت جورج وأخذت تبكي، فأبعدها عنهُ بلطف ونظرَ إلى عينيها قائلاً: لماذا البُكاء؟.

مسحت دموعها التي كانت تذرفها بغزارةٍ وردت بصوتٍ

مبحوحٍ حزين: أتوسلُ إليكَ أن تعتني بنفسك، لا أريدُ فقدانك فأنا أُحبُّكَ كثيراً.

أمسكَ جورج يدي أمل وقبلهُما ثُمَّ نظرَ إلى عينيها قائلاً: لا تقلقي، وإن لم أعد لقد أخبرتُكِ بعنوانِ منزلِ عائلتي اذهبي إليهم وأخبريهم بما جرى.

عانقت أمل جورج مجدداً وهمت بالبُكاءِ قائلة: أرجوك اعتنِ بنفسك إن لم يكن من أجلي فمن أجلِ طفلنا القادم... سأجهز الطعام لنأكل معاً قبل أن تذهب.

ثم دخلت إلى المطبخ وقلبها يخفق خوفاً، ففي كل مهمة كان يقدم بها كانت تمضي الوقت أسيرة مخاوفها، تسجد وتصلي ليعود إليها سالماً. كانت تعتبره النعمة التي تشكر الله عليها دوماً كي لا يحرمها منها، أما جورج فقد انتابه شعور غريب، فكيف سيكون قريباً إلى هذا الحد من منزله وقريته ولا يتمكن من رؤية عائلته، كيف سيتظاهر أنه غريب عن المنطقة وكل نسمة فيها ستفجر الحنين داخله.

***

أنهت سمية امتحانها باكراً قبل انتهاء الوقت المحدد لهُ ثُمَّ أشارت برأسها إلى ميرال التي كانت تجلسُ على مقعدٍ في القاعة نفسها كي تتبعها.

سلمت ميرال ورقة الامتحان وتبعت سمية التي كانت تنتظرها أمام القاعة، وعند وصولها إليها وضعت القلم وورقةَ الأسئلة في جيبِ حقيبتها ثُمّ نظرت إليها وقالت مُرتبكة: ماذا سنفعلُ الآن؟

سمية: إنهما ينتظراننا أمام المدرسة، سوف نمشي باتجاه الأرضِ التي خلف المدرسة وسيتبعاننا ثُمَّ نجلسُ معهما بعيداً عن أعين الناس.

ميرال: أنا خائفة، لنقف معهما قليلاً أمامَ المدرسة ثُمَّ نعود... لا أشعر بالاطمئنان.

ردت سُمية غاضبة: ما بكِ أيتها الجبانة! لن نتأخر، إن رآني أحدٌ من أقاربي عند المدرسة سوف يقتلونني عند عودتي إلى قريتي.. لقد جاؤوا من حمص إلى هنا لرؤيتنا لا تفسدي الأمر.

***

خرجت ميرال وسمية من المدرسة واتصلت هذه الأخيرة بعلي طالبةً منهُ أن يتبعهما هو وصديقهُ، وأخذتا تمشيانِ في البساتين التي خلف المدرسة لتبتعدا عن نظرِ الناس.

ارتبكَ صديقُ علي ونظرَ إليهِ قائلاً بقلق: إلى أينَ نحنُ ذاهبان، أنا لستُ مُرتاحاً لهذا، كيفَ لك أن تثقَ بفتاة لم تعرفها سوى بواسطةِ الهاتفِ النقال.

ضحكَ علي وردَّ قائلاً: لا تقلق، المنطقة آمنة هُنا لقد سألتُ عنها قبلَ قدومي.

وعندما ابتعدتا عن نظرِ الناسِ قليلاً توقفتا حتى وصلَ إليهما علي وصديقهُ اللذان كانا خلفهما، ألقى علي التحية وقامَ بتعريفهما إلى صديقهِ خالد، وقامت سمية بالتعريفِ بصديقتها ميرال.

ثُمَّ مشى علي وسمية في البساتينِ بناء على طلب سمية وسار خلفهُما خالد الذي أُعجبَ بميرال وجمالها كما كانت هي مُرتبكةً وشديدةَ الخجل في الحديثِ معهُ.

كانوا جميعهُم سُعداء، وكل اثنينِ منهما تأخُذهما الأحاديث دون أن يعلموا أن سُمية تقودُهم إلى الموت.

عندما وصلت سمية إلى الأرضِ المُتفقِ عليها والتي كانت تغطيها أشجارُ التينِ والمشمش طلبت إليهم أن يجلسوا ليرتاحوا بينما أرسلت هي رسالةً إلى القائد من هاتفها النقال أخبرتهُ فيها أنَ كُل شيءٍ أصبح جاهزاً متظاهرة بأنها تجيب على رسالة لوالدتها تسألها فيها عن امتحانها.

***

كانت قوات اللجان الشعبية متخفية في المكان في أرض مجاورة للأرض حيث يوجد الشبان، استخدمت يارا المنظار لترى أن شقيقتها أيضاً مع الفرائس التي تُريدُ سُمية تسليمها، فملأَ الخوفُ قلبها وذهبت بخطواتٍ بطيئة نحو قائدها ونظرت إليهِ وهيَ تكادُ تبكي وقالت: لقد أحضرت شقيقتي معها.

اندهشَ القائدُ وقال لها: لم يعُد بوسعنا فعل شيء، أخشى أن يكون المسلحون يحاصرون المكان، عندئذ إذا اقتربنا سوف يحاصروننا جميعاً... سأحاول تخليصها، لكن عليكِ أن تهدئي وتتركي الأمور تسير كما اتفقنا.

صمتت يارا وحاولت أن تكون هادئة لكن قلبها الذي كان ينتفض خوفاً على شقيقتها لم يهدأ.

دخلَ بعضُ الرجالِ المُسلحين نفقاً يصلُ بين القريتين ومن بينِهم جورج وراني، أخذ جورج يوصي راني بأمل وطفله الذي في أحشائها،بينما كان قلبُ راني يتقطع شوقاً لأنهُ سوف يصلُ إلى أطراف قريتهِ إلى حيثُ كان يخرجُ مع عائلتهِ وعائلةِ جورج في نزهة قبل الأزمة السورية دون أن يتمكن من العودةِ إلى منزله، أعاصير من المشاعر شرعت تدفعه إلى دوامة من الذكريات.

خرجَ المسلحون من الطرفِ الآخر من النفق ليصبحوا في الأرضِ التي يجلس فيها الشبان الذين كانوا جالسين تحت الأشجار.

اقتربَوا بينما بقيَ راني وجورج مع ثلاثةِ رجال آخرين بالقربِ من النفق لمراقبةِ المكان.

ملأَ الذُعرُ قلب علي وخالد وميرال عندما نظروا حولهم ليجدوا أنفسهم محاطين بستةِ رجال مسلحين، أما سمية فكانت في مُنتهى الاطمئنان والراحة.

نظرت ميرال إلى سُمية خائفة: ما هذا؟

ضحكت سمية والحقدُ يملأُ عينيها ونظرت إليهم جميعاً وقالت: جميعُكم قتلتم كُلَّ أحلامي.... عائلتي وزوجي، واليوم دوركم لتعانوا ما أعانيه.

نظرت إليها ميرال مصدومةً تكادُ تبكي من الخوف: زوجكِ!!!!... ألستُ صديقتكِ!.. ماذا فعلتُ لكِ؟.

سمية: أنتِ لم تفعلي شيئاً لكنّ أهلَ قريتكِ قد فعلوا الكثير، وأنتِ لستِ أفضلَ منهُم.

ثُم نظرت إلى الرجال وأشارت إليهن للإمساك بالجميع، فاقتربَوا وقبضوا عليهم دون أيِّ مقاومةٍ منهُم بسبب كثرةِ عدد الرجالِ وسلاحهم.

كانت يارا تُراقبُ ما يحدُث من على بُعد، حين صوبَ عددٌ من رجالِ اللجان الشعبية بنادقهم نحو الرجال المُمسكين بالشبان، ثُمَّ أطلقوا النار بأمرٍ من القائد واستطاعوا إصابتهم، فوقعَ الرجُلان اللذان يُمسكانِ بعلي وخالد أرضاً، أما الرجُل الذي يُمسكُ بميرال فقد أصيبَ بذراعهِ واستطاعت هيَ الإفلاتَ منهُ لكنهُ وجهَ بُندقيتهُ نحوها وأطلقَ النار عليها مُصيباً إياها في كتفها ثُمَّ تعثرت بحجرٍ ووقعت أرضاً.

اختبأَ الرجالُ الثلاثة الآخرون خلفَ الأشجار وأخذوا يطلقونَ النار نحو الجهة التي أطلق منها الرصاص، أما علي وخالد وسمية فقد استلقوا أرضاً كي لا تستطيع الطلقات النارية إصابتهُم.

أطلقت يارا الرصاص نحوَ الرجلِ الذي أصاب ميرال واستطاعت قتلهُ ثُمَّ ركضت نحوَ شقيقتها وهي تمسكُ سلاحها بعد أن شاهدتها تقعُ أرضاً، وصرخ فيها قائدُها طالباً منها التوقف لكنها لم تأبه لهُ، فخوفها على شقيقتها الوحيدة قد شلَّ تفكيرها.

في هذا الوقت، أمرَ أحدُ الرجال جورج بأن يذهبَ ويستطلعَ ما يحدُث رافضاً طلبَ راني مرافقته.

ركضَ جورج وهو يتنقلُ بين الأشجار كي لا تصيبهُ النيران ليشاهدَ ما يجري، وليرى هل هُناكَ أملٌ بهروبهِ وعودتهِ إلى قريتهِ، فشاهدَ أحد المُسلحين يوجهُ بُندقيتهُ ليطلقَ النارَ على يارا فرفعَ جورج بُندقيتهُ وأطلقَ النارَ عليهِ لحمايتها لكن دون أن يعلم حتى أنها فتاةٌ، فتوقفت هي ونظرت إليه وإلى البندقية في يدهِ دون أن تعلمَ أنه شقيقها، فقد كان لا يظهرُ منهُ سوى عينيه بينما كانَ هوَ ينظُرُ إليها مُتعجباً كونها فتاة ترتدي زيّاً عسكرياً وتقاتل ولم يستطع معرفة أنها شقيقتهُ لأنها كانت تُغطي بالوشاح الجزء السفلي من وجهها،قامت بإطلاقِ النارِ عليهِ وإصابتهُ في صدرهِ ظناً منها أنهُ يريدُ قتلها دون أن تعلم أنه قد قام بإنقاذِ حياتها ثُم تابعت طريقها باتجاهِ ميرال.

انسحب الرجُلان المُسلحان اللذان بقيا على قيدِ الحياةِ راكضين وركضت خلفهما سمية لكنَّ علياً أمسكَ بندقيةِ أحدِ المُسلحين القتلى وأطلقَ النارَ فأصابها في ظهرها موقعاً إياها أرضاً.

أما يارا فقد اقتربت من ميرال وعانقتها وأخذت تبكي وتصرُخُ قائلةً: لماذا فعلتِ هذا بي، ألم أخبركِ أن تعودي، لماذا أردتِ أن تقتليني أنتِ أيضاً من جديد... ألا يكفيني ما أعانيه.

فتحت ميرال عينيها ومسحت بيدها على وجهِ يارا قائلةً بصوتٍ مُتعب مُتألم: لا تغصبي مني أرجوكِ، فأنا أيضاً أُحبُّكِ جداً.

أمسكت يارا يدَ ميرال وقبلتها وهي تبكي قائلة: كوني بخير لأجلي. في حين طلبَ القائدُ من الرجال أن يحملوا ميرال ويأخذوها إلى سيارةِ الإسعاف.

لقد وقفت يارا ونظرت إلى سُمية المُلقاة أرضاً، ثُمَ اقتربت منها وأمسكت بها بقوة وأدارتها نحوها، ثُمَّ جلست فوقها وهي مُستلقية، فنظرت سمية إليها خائفة وهي تتمتمُ بعباراتٍ مُتألمة تطلبُ فيها الرحمة.

لكن هذا لم يؤثر في يارا فأخرجت من جيبها مشرطاً وأزالت عنهُ غطاءهُ ليظهر رأسهُ الحاد ثُمَّ أخذت تطعنُ سُمية في جهةِ قلبها بكُلِ ما تملكُ من قوة وهي تصرُخ: كم مرةً تريدون أن تقتلوني... كم مرةً تريدون أن تقتلوني.... يكفي... يكفي.

بقيت تطعنُها حتى امتلأ وجهها وثيابها بدمائها بينما كانَ علي وخالد وبعضُ الرجال المقاتلين ينظرونَ بدهشة إليها وإلى قسوةِ قلبها متعجبين مما تفعله من دون أن يعلموا أنها بقايا روحٍ قد حطمتها الحرب وكسرتها ألف مرة.

وقفت وتوجهت نحوَ علي وخالد ونظرت إليهما نظراتٍ حادة تملؤها القسوة وقالت: من منكُما علي؟

أجابَ علي وهو خائفٌ منها بعد ما شاهدهُ: أنا؟

ثُمَّ صفعتهُ بقوةٍ قائلة: أنت شابٌ غبي، لقد سمحتَ لفتاةٍ أن توقعَ بك.

فاقترب القائدُ منها ومسحَ على كتفها برفق قائلاً: هدئي من روعكِ، إن ميرال بخير فإصابتُها سطحية وغير خطرة.

قدمَ أحدُ الشبان المقاتلين إلى القائد وقالَ لهُ: هناكَ مُسلحٌ

يقولُ إنهُ من هذه القرية، وإن المسلحين اختطفوه، هل ننقلهُ للعلاج أم نتخلص منه.

طلبَ القائد من الشاب أن يأخذهُ ليريهِ إياه وذهبت معهُ يارا مُسرعة، وعندما وصلا نظرت يارا إلى شقيقها التوأم الذي كان قد كشفَ عن وجههِ والدماءُ تملأُ ثيابهُ فدققت جيداً بملامحهِ التي قد أخفتها لحيتهُ الطويلة، واقتربت منهُ ثُمّ أعادت النظرَ إليهِ وهي لا تصدقُ أنهُ جورج وأنها هي من أطلقت النار عليه، وكان جورج ينظُرُ إليها وهو بالكادِ يستطيعُ فتحَ عينيهِ، وقالَ بصوتٍ بالكادِ يكون مسموعاً: يارا!!... أُختي حبيبتي.

عانقتهُ وهيَ تحسُّ أن قلبها قد انفطرَ حُزناً عليهِ وعلى ما فعلتهُ به وكأن روحها قد انتزعت منها وأخذت تبكي غارقةً في دموعها وهي تقول: سامحني يا أخي، لم أكن أعرفُ أنكَ أنت... سامحني... يا إلهي لا أصدق أنك حي.

أبعدَ القائدُ يارا عن شقيقها وطلبَ من الرجال أن يتجهوا بهِ إلى المشفى على الفور، بينما بقيت هي جالسةً على الأرض تبكي وتلومُ نفسها (يا إلهي ماذا فعلت!!!؟؟)، اقتربَ علي وخالد منها وساعداها على النهوض ثُم صعدوا جميعاً إلى سيارة قائدها تابعين سيارات الإسعاف نحو المشفى.

***

أما راني فقد أعاده المسلحون معهم رُغماً عنهُ إلى القرية بعد

أن أخبروهُ أنَهم قد رأوا جورج مقتولاً وهم في طريق العودة، حيثُ أن جورج قد تظاهر بالموت عندما مر المسلحون من جانبهِ هاربين حيث كان قد كشف عن وجههِ حينذاك.

عادَ راني أدراجهُ حاملاً قلبهُ الحزين الذي يبكي فُراقَ صديق طفولتهِ الذي كان يُشعرهُ بقربهِ من يارا عندما يراهُ لأنهُ توأمها، يمسك روحهُ التي قد هرمت وأنهكها الحنين والألم، جلس في غرفتهِ التي كان يُقيمُ فيها مع جورج وحيداً وأخذ يبكي حتى كادَ قلبهُ يتوقفُ من شدةِ البُكاء.

ثم أمسك بُندقيتهُ ووجهها نحوَ رأسهِ ليقتُلَ نفسهُ لكن صوت يارا الذي مر في باله قد منعه وهي تقول: ابقَ حياً مهما كلف الأمر.

فخفضَ بُندقيتهُ وقالَ في نفسهِ: لقد تحملتُ كُل هذا لأجلكِ، لعلي أعودُ يوماً لأرى عينيكِ الجميلتين وأحضن قلبكِ الذي أعلم أن الحزن قد أدماه.

***

وصلت سيارات الإسعاف وأُدخلَ جورج وميرال فوراً إلى غُرفةِ العمليات، بينما جلست يارا مُحطمةً تدعو الله علَّه يُنقذُ شقيقها الذي كانت ستموتُ من حزنها وألمِ ذنبها الذي ارتكبتهُ لو فارق الحياة، لقد عاد من الرماد حياً إليها فكيف ستتحمل فراقه لو أصابه مكروه. كانت تأمل أن يكون راني حياً مثله حتى لو بقي بعيداً عنها، لكن

يكفيها أن تتنشق هواء تنشقه هو قبلها عندما يدور الهواء في أنحاء الأرض فتشعر بقربه منها.

***

اتصلت أم جورج بيارا لتخبرها أن ميرال لم تأتِ إلى المنزل بعد فارتبكت وأجابتها أن ميرال معها وأنهما بخير وستعودان في المساءِ.

حلَّ المساءُ واستيقظت ميرال من أثرِ تخديرِ العملية التي أُجريت لها في الكتف لاستئصال الرصاصة، بينما دخل جورج في غيبوبةٍ دون أن يتحدد مصيرُهُ، فقد أخبرَ الأطباء يارا أن أمرهُ بيدِ الله.

استأذنت الطبيب من أجلِ إعادةِ ميرال إلى المنزل لكي لا تقلقَ والدتُها بشأنها أكثرَ من ذلك، فوافقَ مقدماً إليها بعضَ الإرشاداتِ والنصائح.

***

أوصل القائد ميرال ويارا إلى منزلهما ، وكانت هذه الأخيرة قد أحضرت معها علي وخالد إلى المنزل بسبب تأخر الوقت وخطورة الطريق نحو المدينة ليلاً.

عند دخولهم إلى المنزل، دُهشت الوالدة لدى مشاهدتها الشابين الغريبين، ونظرت إلى كتفِ ميرال المُضمدة بالشاشِ الأبيض والتي لا تستطيعُ تحريكها فركضت نحوها بلهفةٍ وخوف قائلة: ماذا حدثَ لكِ يا ابنتي؟

لم تُجب ميرال وخفضت رأسها وهيَ تشعُرُ بالذنبِ بسبب الذُعر الذي تسببت بهِ لوالدتها وشقيقتها.

ثُمَّ نظرت الأُمُ إلى وجهِ يارا الشاحبِ الذي لا تزال بقايا دماء سمية عليه، وإلى عينيها اللتين تلون بياضُهما باللونِ الأحمرِ من شدةِ البُكاء، اقتربت منها واضعةً يديها على ذراعيها بلطف وقالت بصوتٍ مُرتجفٍ خائف: يارا حبيبتي ما بكِ؟ ما بها شقيقتُكِ؟.

اقترب منها علي وقالَ لها: اهدئي يا خالتي وسنُخبرُكِ بكُلِ شيء، لكن دعيهما ترتاحا قليلاً أولاً.

الوالدة: حسناً أهلاً بكم يا أبنائي، اجلسوا ريثما أعد لكم العشاء.

ذهبت إلى المطبخ لإعدادِ الطعام، وهي قلقة وقلبها ينبض بسرعة من الخوفِ مما يكون قد جرى مع ابنتيها، وهي تتساءل في نفسها عن هويةِ الشابينِ اللذين أتيا مع يارا وميرال.

وعندما جهزت مائدة الطعام أبت يارا أن تأكُلَ شيئاً رُغم محاولةِ والدتها إطعامها، حتى أنها لم تُبدل ملابسها المُتسخة.

أخذ علي وخالد يتناولان الطعام بينما كانت الوالدة تُطعمُ ميرال بيدها وهيَ تُراقبُ يارا التي بدا الهمُّ يأكُلُ قلبها وعقلها والتي كانت تحاولُ ابتلاعَ دموعها التي توشكُ على النزول بينَ الحينِ والآخر وهيَ قلقةٌ على حالها.

***

كانت أمل تجلسُ في غُرفتها تنظُرُ من النافذة نحو الطريقِ مُترقبةً قدومَ جورج وقلبها يحترقُ خوفاً من أن يكونَ قد حلَّ بهِ الأذى، دون أن تعلمَ الخبر الأليم الذي انتشر في قريتها.

لم تستطع الانتظارَ أكثر فبدلت ملابسها مُرتديةً جلبابها ونقابها، واتجهت نحوَ مجلس القائد المسؤول عن المُسلحين للسؤالِ عن جورج، وقبلَ وصولها إلى مجلسهِ لمحت من نافذةِ الغُرفة التي كانَ يقيمُ فيها جورج مع راني خيالَ أحدهم يتحرك حيثُ كانَ راني يجولُ داخلها قلقاً حزيناً لعلَّ النار المُشتعلة في أعماقهِ تهدأُ قليلاً.

اقتربت من بابِ الغُرفة وطرقت الباب وهيَ مُترددة، فتح راني الباب وهو مُتعبٌ شاحبٌ كأنهُ عجوزٌ بلغَ من العُمرِ مئةَ عام.

نطقت أمل مُتلهفةً خائفة قائلة بصوتٍ خافت مرتعد: راني!! أينَ جورج؟.

لم يدرِ راني ماذا يقولُ لأمل فترقرقت الدموعُ في عينيهِ ثُمَّ ابتلعَ غصةً كانت قد علقت في حنجرتهِ قائلاً: إنهُ في رعايةِ السماء.

أجهشت أمل بالبكاء، ووضعت يدها على جدارِ الغُرفة القريبِ من الباب مُستندة إليه وهيَ بالكادِ تقوى على الوقوفِ من ألمِ هذا الخبر.

ثُمَّ أكمل راني قولهُ وتساقطت الدموعُ من عينيهِ: حاولي أن تكوني قوية واذهبي قبل أن يراكِ أحدٌ ونقع في المشاكل، هيئي نفسكِ لمغادرةِ القرية والذهاب إلى قريتي، فهذهِ وصيةُ جورج.

حاولت أمل استجماعَ قواها قائلة: سأذهبُ في الغد، فأنا لا أريدُ أن يُزوجني القائد إلى أحد المُجاهدين مجدداً.

ردَّ راني: سأكتُبُ رسالةً إلى خطيبتي يارا وإلى والدتي وستجدينها عند نافذةِ منزلكِ في الصباح، أرجوكِ أن تُعطيها لها فورَ وصولكِ إلى هُناك.

مسحت أمل دموعها وردت بصوتها المكسور: سأوصلها إليها لا تقلق، ضعها تحت المزهريةِ الموجودة على رف الحائطِ الصغير أمام النافذة.

***

كانت والدةُ جورج تحاولُ مُغادرة المنزل لرؤيةِ ابنها بعد أن أخبرتها يارا بما حدث بينما علي وخالد يحاولان تهدئتها ريثما يحلُّ الصباح وتذهبُ لمشاهدته، أما ميرال فكانت تجلسُ على الأريكة مدهوشةً وأعصابُها ترتجفُ مما سمعته، فهي لم تكن تعلم بأمر جورج.

اقتربت يارا من والدتها وعانقتها وهي تبكي تكادُ تصابُ بالجنون وتتوسلُ راجيةً والدتها السماح قائلة: أرجوكِ سامحيني، أقسم أنني لم أكن أقصد، إن قلبي يؤلمني لما حدث يا أمي.

أما الأم فمسحت دموعَ ابنتها وهيَ صامتة لا تستطيعُ أن ترُدَّ على كلامها من شدةِ البُكاء والأنين.

لم تكن الأمُ تشعرُ بالفرحِ كون ابنها ما زالَ حياً بقدرِ ما كانت حزينةً من خوفِ فقدانهِ من جديد.

***

حلَّ الصباح... استيقظ علي وخالد اللذان كانا قد ناما في غُرفةِ جورج ليجدا أنَّ الجميع مُستيقظٌ في الصالة.

طلبَ علي من أُمِ جورج أن تسمح له أن يوصلها هو وخالد إلى المشفى وهما في طريقهما للعودة إلى عملهما، وافقت على طلبِه وطلبت من يارا أن تبقى في جوارِ شقيقتها لتعتني بها رافضةً منها القدومَ معها.

نظرت أمُ راني التي كانت تسقي بعض المزروعات أمامَ منزلها إلى أمِ جورج عند خروجها وألقت عليها التحيةَ قائلة: صباحُ الخير يا أُمَ جورج، إلى أينَ أنتِ ذاهبة؟

ردت أم جورج بعجلة، فهي كانت تتوقُ شوقاً لرؤيةِ ابنها: صباح النور، إلى رؤيةِ جورج، إنهُ حي لكن في وضعٍ خطر.

سقطَ إبريقُ الماءِ من يدِ أمِ راني واقتربت من أم جورج مندهشةً وقالت بحرقة: حقاً، وراني؟؟.

ردت أم جورج بحزن: لا أعلم، عندما يعودُ جورج إلى وعيهِ سأسألهُ عن راني.

توهج الفرح من عيني أم راني وكأنَّ زهرةَ أملٍ صغيرة تفتحت في قلبها قائلة: انتظريني ريثما أبدلُ ثيابي وآتي معكِ.

أم جورج: أنا في عجلةٍ الآن عندما يستيقظ سوفَ أتصلُ بكِ لتأتي.

تابعت أم جورج طريقها في حين توجهت أم راني إلى المنزلِ لترى يارا أو ميرال وتفهم ما حدثَ من إحداهما.

***

ارتدت أمل جلبابها ونقابها وقد تمكّن منها الوهن من شدةِ الحُزنِ والبكاء، ثُمَّ أمسكت السُترة التي كان يرتديها جورج آخر مرة قبلَ رحيلهِ وتشمّمتها بعمقٍ والدموعُ تتساقطُ من عينيها ووضعتها في الحقيبةِ الخاصةِ بها، وقبل خروجها فتحت النافذة ورفعت المزهرية وانتشلت الرسالةَ التي تحتها ووضعتها في الحقيبةِ أيضاً.

ثُمَ غادرت القرية دون أن تأخذَ معها شيئاً سوى حقيبة تعلقها في كتفها فيها السترة والرسالة وهويتها الشخصية وبعض النقود حتى لا يشعُرَ أحدٌ من رجالِ القائدِ المُسلحين أنها عازمةٌ على الرحيل ويحاولوا منعها من ذلك.

***

خرجت يارا وأم راني من المنزل بعد أن أخبرتها يارا بما حدث في الليلة الماضية، واتجهتا نحو الكنيسة وأخذتا تصليان وتدعيانِ الرب بأن يشفيَ جورج، راجيتين أن يكون راني حياً أيضاً، ويعود

سالماً، تتضرعان إلى الله أن يستجيب الدعاء ويضيء الأمل في قلبيهما من جديد بعد أن طال الألم.

***

وصلت أمل إلى قريةِ جورج، رفعت نقابها ليبدو وجهها الشاحب الذي كان يعتريه البؤس، وأخذت تنظُرُ حولها مُتأملةً القرية، أخذت تسألُ من تصادفهُ في طريقها عن منزلِ جورج، وكلما نطقت اسمه شعرت بسكين تنغرس في قلبها حزناً على فراقه، كان الناسُ ينظرون إليها باستغراب فهي تبدو غريبةً عنهم وعن قريتهم، يتساءلون فيما بينهم عن سببِ سؤالها عن المنزلِ.

***

كانت أم جورج تجلسُ إلى جانبِ ولدها غير مصدقة أنها استطاعت رؤيتهُ من جديد، تلمسُ بيديها تارةً يديهِ وتارةً وجهه ولحيته وهي تدعو له بالشفاء، وعيناها تترقبان استيقاظه ليبثَّ الحياةِ التي ماتت بداخلها وينتشل السواد والحزن من فؤادها الملوع..

***

وصلت أمل إلى أمامِ بابِ المنزل وكانت مرتبكةً في حين كانت يارا تحدثُ والدتها لتطمئن إلى جورج الذي لم يتغير في حالهِ شيء.

طرقت الباب فأغلقت يارا خط الهاتف واتجهت نحوَه وفتحتهُ، ثُمَّ نظرت إلى أمل التي كانت واقفةً كتمثال صامت لا تدري ما تقول.

قالت لها يارا وهي تنظُرُ إليها باستغراب: يبدو أنكِ طرقتِ باباً عن طريق الخطأ.

أجابت أمل والدموعُ تترقرقُ في عينيها: أنتِ يارا أم ميرال؟

ردت يارا مندهشة: أنا يارا ومن أنتِ؟

أمل: زوجةُ جورج.

ضحكت يارا وهيَ تسخرُ من أمل، وأشارت إليها بسبابتها باستهزاء قائلة: أنتِ زوجةُ أخي أنا.

ثُم دفعتها بيدها بقوة قائلةً: ارحلي من هنا.... كاذبة.

تساقطت الدموعُ من عيني أمل، فهي لم تكن تتوقعُ أن يكونَ الاستقبال قاسياً كهذا وردت قائلة: لم أتوقعُ أنكِ بهذه القسوة، لقد أخبرني جورج وراني أنكِ حنون وطيبةُ القلب.

لمع بريقُ الأملِ والفرح في عيني يارا وتسارعت دقاتُ قلبها عندما سمعت اسم راني، شعرت بالذنبِ بسبب معاملتها السيئة لأمل، فأمسكت يدها بلطف قائلة: أنا آسفة، أُدخلي... اعذريني لكن أعصابي متعبة هذه الفترة.

جلستا في الصالة بينما أخذت ميرال تنظُرُ إليها وتدقق في وجهها لمعرفةِ من هيَ لأنها ظنت أنها شخصٌ تعرفهُ بسبب معاملةِ يارا الحسنة وترحيبها بها.

جلست أمل على الأريكة ونظرت إلى ميرال مُبتسمةً بحزن،

بينما جلست يارا إلى جانبها قائلةً بلهفة: أرجوكِ أخبريني أينَ راني؟ هل هو حي؟.

استغربت ميرال سؤال يارا وخاطبتها بتعجبٍ قائلة: من هذه؟؟.

أجابت أمل: سأُخبركما بكلِ شيء.

ووضعت يديها على رأسها مكملةً كلامها المتعب: لكنني الآن أشعرُ بالدوارِ قليلاً.

دخلت يارا إلى المطبخ وجلبت كأساً من العصيرِ البارد ووضعتها أمامها وطلبت منها أن تشربها ريثما تحضرُ لها ثوباً من ثيابها لتُبدلَ ملابسها، فشكرتها وأخذت تشربُ العصير لتستعيدَ قوتها قليلاً، فهيَ لم تتناول شيئاً منذُ ظُهرِ الأمس، بينما كانت ميرال تراقبُها بنظراتها متسائلةً في نفسها عن هويتها.

أحضرت يارا الثوبَ لأمل والخوف يتملكها مما ستقولهُ بشأنِ راني وطلبت منها أن تدخُلَ لتبديلِ ملابسها، فنظرت أمل إلى يارا بحزن قائلة: إن راني حي... لكن.... لكن...

امتلأَ قلبُ يارا فرحاً عند معرفتها بأَنَ راني لا يزال حياً، لكنها بقيت خائفة ممّا تريدُ أن تقولهُ أمل أيضاً فقالت لها: لكن ماذا؟؟؟؟

مسحت أمل دمعةً قد سقطت على خدها وأكملت كلامها قائلة: لكن جورج قد قُتل.

اقتربت يارا من أمل وعانقتها بقوة وروحها تخشعُ فرحاً وهي تصرُخ: الحمدُ للرب.... الحمدُ للرب.

فوجئت أمل بردةِ فعلِ يارا، فنظرت ميرال مُبتسمةً إلى أمل

والفرحُ يشعُّ من عينيها قائلة: إن جورج مصابٌ فقط وندعو الرب أن يشفيه.

وضعت أمل يديها على خديها وكأن الله قد نفخ فيها الروحَ من جديد قائلةً: حقاً؟؟؟.

نظرت إليها يارا وقد غرقت عيناها بالدموع وقالت بصوتٍ شجين: نعم، إنهُ في المشفى ووالدتي برفقته.

أمل: هل أستطيعُ أن أذهبَ إليه، خذاني إليهِ أرجوكما.

يارا: ليس الآن فهو فاقدٌ للوعي وليسَ قبلَ أن تُخبرينا بكُلِ ما جرى.

بدلت أمل ملابسها ثُمَّ أخذت تُخبرُ يارا وميرال بما حدثَ وبما أخبرها بهِ جورج وراني عن ذلك اليومِ البائس، كانَ قلبُ يارا يُغردُ فرحاً كطيرٍ فرحٍ بعودةِ الربيع، وبعد انتهائها أمسكت حقيبتها وأخرجت الرسالة وأعطتها إلى يارا، فأمسكت هذه الأخيرة الرسالةَ بلهفةٍ ودخلت إلى غُرفتها واستلقت على سريرها وأخذت تقرأها.

ومما جاء فيها:

«حبيبتي يارا، أعلمُ أنكِ كُنتِ تنظرينَ قدومي بفارغِ الصبر وأنا أيضاً كنتُ أتوقُ شوقاً إليكِ لكن ما حدثَ في ذلك اليوم منعني من المجيء. لم أكن حزيناً لما حصل بقدرِ ما كنتُ حزيناً لأنني سأكونُ سببَ إحزانِ قلبكِ الصغير الذي طالما أحببتُه، اخترتُ هذه الحياةَ الذليلة التي أعيشها الآن على الموتِ الكريم لعلي أعودُ يوماً وأعيدُ إليك ابتسامتكِ من جديد.

أتذكرينَ حينَ قُلتِ لي ابقَ حياً مهما كلف الأمر؟ لقد بقيتُ حياً لأجلكِ لكن تكلفةَ الأمرِ كانت باهظة، لقد صعدت روحُ صديقي المُفضل والأخُ التوأمُ لغاليتي «جورج» إلى السماء لطالما كان يتمنى أن يعودَ إلى القرية وإلى حياتهِ السابقة فيها من جديد، كانَ يتمنى أن يقضي يوماً واحداً بينكم قبل رحيله لكن القدر لم يلبِّ لهُ ما تمناه.

الآن أصبحت وحيداً بعد رحيله، لكن ما يبقيني متمسكاً في الحياة هو أملُ العودة، فربما أعودُ يوماً ويغمرنا الفرحُ وأروي قلبَ والدتي الذي أعلمُ أنهُ قد جفَّ على غيابي وربما ألقى مصيرَ جورج وتموتُ معي هذهِ الأُمنيات.

لا تحزني إن واتتني المنية ولم أستطع العودة فروحي ستبقى بقربكِ مهما حصل، كوني قويةً لأجلي، ابتسمي وافرحي وتمتعي بالحياةِ، لا تجعلي الحُزنَ يأكُل جمالَ عينيكِ ويُذبل طفولةَ قلبكِ، كم أتمنى لو أستطيع أن أقبض روح واحد منهم مقابل كل دمعة أمطرت بها لآلئ عينيك.

أخبري والدتي أني أحبُّها كثيراً واطلبي منها أن تسامحني، فقد كانت غاضبةً مني عندما كلمتُها آخرَ مرة، أخبريها أن قسوتها وغضبها هما أحنُّ من كُلِ ما يجري في هذه الدُنيا.

إني مشتاقٌ إليكما كثيراً، اشتقتُ أن أشربَ القهوةَ معكِ كُلَ صباح وأن أشعلَ بعض السجائر، اشتقتُ لأن تغضبي مني وتوبخيني ثُمَ تعانقيني وتبكي، إني أحنُّ إلى كل تفاصيلِ الحُزنِ والفرحِ في قريتنا.

اعتني بوالدتي وهوّني عليها ألمَ غيابي، واعتني أيضاً بأمل والطفلِ الذي في أحشائها فلقد أوصى جورج بها وبطفله».

أنهت يارا قراءةَ الرسالة وضمتها إلى صدرها ثُمَّ غزاها البكاء الذي مزج بين الحزن والفرح معاً.

***

خرجت إلى الصالة فوجدت ميرال وحدها فسألتها قائلة: أينَ أمل؟

ميرال: إنها متعبة، لقد دخلت لترتاحَ في غرفةِ جورج قليلاً.

ثم دخلت إلى المطبخ وهيّأت الطعام وأدخلتهُ إلى الغُرفة حيثُ كانت أمل مُستلقيةً، وطلبت منها أن تجلسَ لتناولِ الطعام، فاستجابت لطلبها وجلست يارا في جوارها وقالت لها: أتوسلُ إليكِ أريدُكِ أن تساعديني لرؤيةِ راني، أرجوكِ.

أمل: كيفَ بإمكاني أن أساعدكِ!!!

يارا: أريدُ ثيابكِ وهويتكِ الشخصية، أريدُ أن أذهبُ إلى قريتكِ وأراهُ ثُمَّ أعود سريعاً.

أمل: لكن هذا خطرٌ جداً عليكِ!

ردت يارا بصوت حزين متوسل قائلة: أرجوكِ، إن راني مُتعبٌ وحزين.. إنه وحيد... أرجوك.. أتوسلُ إليكِ، سأكون ممتنةً لكِ حتى الموت.. أريد أن أخبره بأن جورج حي.

حزنت أمل على حالِ يارا وردت قائلة: حسناً سأساعدُكِ،

وسأُخبركِ ببعضِ التفاصيل لتريهِ بأمان، لكن عليكِ العودة سريعاً لأن جورج سيغضب مني إن علم.

عانقتها فرحاً، وبدأت أمل تُخبرُها بماذا عليها أن تفعل، وأينَ ستجدُ راني وباسمهِ المعروف بهِ هُناك.

***

قبل أن ترتدي يارا ملابس أمل وتذهب توجهت إلى منزلِ أم راني وأخبرتها بما حدث وأنهُ ما زالَ حياً وسيعودُ بإذن الله وأوصتها أن تعتني بنفسها لأجله.

غمرَ الفرحُ قلبَ الأم المسكينة وأخذت تعانق يارا وتقبلها شاكرة الله وتدعوهُ ليعيدهُ إليها سريعاً، وبعد مغادرة يارا التي كانت في عجلة من أمرها، دخلت إلى غُرفةِ ابنها وأخذت تُنظفها وتعيدُ ترتيبَ كُلّ شيءٍ فيها لتبثّ فيها الحياة من جديد.

***

تهيأت يارا للمغادرة ومشت مُسرعةً نحوَ الشارعِ الرئيسي ووقفت تنتظرُ قدومَ وسيلةِ نقلٍ تأخذُها إلى هناك، كانت مُتشوقةً للقاء، تُراقبُ الطريقَ جيداً وقلبها يخفقُ بشدة من الفرح المختلط بالخوف.

توقفَت حافلةٌ قادمةٌ من المدينةِ إلى تلكَ القرية فصعدت إليها يارا وأعطت النقودَ إلى السائق وطلبت منهُ أن يُنزلها في المكانِ الذي أخبرتها أمل به.

بقيت واقفة لعدمِ توافرِ مكانٍ لجلوسها، أخذت تنظُرُ من النافذةِ التي بجانبها إلى الطرقات، وعندَ دخولهما حدودَ تلكَ القرية ارتبكت وتسارعت أنفاسها من الخوفِ والشوق، كانت الشوارع شبه فارغة، مُعظمُ من فيها هُم رجالٌ أشكالهُم كرجالِ الجاهلية وعددٌ كبيرٌ من المنازل والأبنية متآكلةٌ مُدمرة، بعضها ثقبت جدرانهُ بالرصاص حتى أصبحَ بالكادِ يقوى على الوقوف.

وقفَ الباصُ عندَ حاجزٍ أقامه بضعةُ رجالٍ مُسلحين لا يظهرُ منهم سوى أعينهم وإلى جانبهم امرأة تُغطي وجهها بالكامل بغطاء أسود شفاف.

طلبَ أحد الرجال من الرُكابِ أن ينزلوا ليقومَ بالتفتيش، نزلَ الرُكابُ ودخلَ الرجُل وأخذَ يفتشُ حقائبَ الرُكابِ وينظرُ تحتَ المقاعد، أما في الخارج فكانَ رجلٌ آخر يفتشُ الرجال حيثُ كانَ يمرّ يديهِ على أجسادهم ليتحسس ما إذا كانوا يُخبئونَ معهم شيئاً من الممكن أن يخلَّ بنظامِ قريتهم ويرى بطاقاتهم الشخصية، أما المرأة فكانت تفتشُ النساءَ بالطريقة نفسها، وترى ماذا يوجدُ داخل حقائبهن اليدوية.

تنهدت يارا عندما انتهى التفتيشُ وصعد الركابُ مجدداً ليكملوا طريقهم وارتاح قلبها قليلاً، ثُمَّ أكملَت الحافلة طريقها. كانت تنظرُ إلى السائقِ بينَ الحينِ والآخر منتظرةً أن يقولَ لها إنها قد وصلت إلى مكانها المقصود.

وعندما أخبرها أنه قد أوصلها إلى الشارع المطلوب، شكرتهُ ثُمَّ

نزلت ومشت في الشارعِ حتى رأت الدُكان المُغلق الذي كان اسمهُ المحبة، والذي كانَ في جوارهِ بناءٌ مهدّم حيثُ كانَ منزلُ أمل يقعُ قبالته، ولونُ بابهِ أبيضُ فأخرجت مفاتيح المنزل من الحقيبة ويدها ترتجف خوفاً وسارعت في فتح البابِ عندما رأت أحدَ الرجالِ المُسلحين واقفاً يتحدثُ عبر الهاتفِ النقال حيثُ كان لا يبعدُ عنها سوى بضعةِ أمتار وينظر إليها.

كان طريقاً فرعياً لا يوجدُ فيهِ سوى منزل أمل لا يزالَ مسكوناً، فدخلت بسرعة وأغلقت الباب جيداً خلفها ونبضات قلبها تكادُ تنقطعُ خوفاً.

نظرت إلى المنزل من الداخل الذي كان عبارةً عن صالةٍ كبيرة وغُرفةٍ، فدخلت إلى الغُرفة وفتحت دُرجَ الخزانةِ وأخرجت ورقةً من حيثُ أرشدتها أمل وكتبت عليها محاولة تغيير خطها الذي يتقن راني معرفته جيداً «اتبعني إلى منزلي دون أن يراكَ أحد، سأترُكُ لك الباب الخارجي مفتوحاً» «أمل».

ثُمَّ وضعتها في جيبِ الجلباب ونظرت من نافذةِ الغُرفة مُنتظرةً حتى يذهب الرجُل الذي كان يتكلمُ عبر هاتفهِ.

***

عند ذهابه سارت حتى آخر الشارع وهيَ تتذكرُ شرحَ أمل للطريقِ إلى غُرفةِ راني وهيَ ترتجفُ من الخوفِ والارتباك، كانت تسمع دقات قلبها في أذنيها، وكلما اقتربت يصبح الصوت أقوى، مشت يميناً حيثُ كانَ يوجدُ منزلٌ كبيرٌ عليهِ العلم الخاص بالفصائل

المُسلحة، علمت يارا أنهُ منزلُ القيادة حيثُ يوجدُ مجلسُ القائد، وكانَ بالقُربِ من بابهِ عددٌ وفيرٌ من المُسلحين وفي جوارهِ المحكمة الشرعية وقبلهما بحوالى ثلاثين متراً توجدُ غُرفةٌ صغيرةٌ بابُها أسودُ اللون، وعلى الباب علمُ هذه الفصائل أيضاً، فاقتربت باتجاهِ الغُرفة وأخذت تمشي جانباً كي لا تلفتَ الأنظار. كانت مُترددة وهي تمشي خطوةً إلى الأمام ثُمَ تلتفتُ لتعودَ أدراجها من الخوف لكنّ شوقها لهُ جعلها عازمةً على رؤيتهِ فأكملت طريقها وهي تقولُ في نفسها: أرجوكِ يا عذراء احمينا... الرأفة يا يسوع.

طرقت باب الغُرفة وهيَ تأملُ أن يفتحَ لها راني الباب وأن لا يكونَ معهُ رجلٌ آخر.

فتح لها الباب وهو منهكٌ متوهنٌ من الحُزنِ وقلةِ النوم شكله تماماً كبقية المُسلحين، نظرت إليهِ متفاجئةً من هيئته فهيَ بالكادِ استطاعت معرفتهُ وقلبها يتراقصُ فرحاً فلو استطاعت لحضنتهُ أمامهم جميعاً، نظرَ إليها باستغرابٍ قائلاً: أمل!!!! لماذا لم تغادري بعد، اذهبي قبلَ أن يراكِ أحد.

أخرجت الورقةَ من جيبها وأعطتهُ إياها ثُمَ عادت أدراجها مُسرعة، لم يستطع راني أن يُميزَ أن هذهِ ليست أمل نظراً إلى التشابه بينها وبين يارا من حيثُ الطول والعرض، وكانَ النقاب الذي ترتديه بالكادِ يُظهرُ عينيها، استغربَ تصرُفها ووضعَ الورقة في جيبه بسرعة بعد أن رأى أحد الرجال المُسلحين قادماً نحوهُ.

وقفَ الرجُلُ المُسلح بالقُربِ من راني قائلاً: من هذه المرأة يا أخي؟

ردَّ راني مُرتبكاً: إنها زوجةُ أحدِ أصدقائي الذين استشهدوا البارحة.

الرجُل: رحمهم الله... وماذا تريد؟

راني: لقد أعادت إليّ نقوداً كانَ زوجها قد استدانها مني.

الرجل: حسناً كُن قوياً أنت رجلٌ مؤمن، ما هذه الحال التي أنت فيها!.

راني: بارك الله فيكَ، لا تقلق فأنا بخير.

ثم دخلَ إلى غُرفته وأغلقَ الباب وأخرجَ الورقةَ من جيبهِ وقرأَ مضمونها.

خَرَجَ بعد ذلك وهوَ غاضبٌ لأن أمل لم تُغادر،كان يمشي ويترقبُ المكانَ حولهُ متخوفاً من أن يتبعهُ أحد ويظُنّ بهِ وبأمل ظنّاً سيئاً.

***

وصلت يارا إلى المنزل وأغلقت الباب خلفها بإحكام ثُمَّ دخلت إلى الغُرفة ورفعت نقابها عن وجهها وجلست على السريرِ بالقُربِ من النافذة وأخذت تترقبُ قدومهُ كي تفتحَ لهُ الباب عندما يأتي.

عندما رأته قادماً ركضت مُسرعةً وفتحت الباب ووقفت خلفه

تنتظرهُ، فتحَ هو الباب ودخل فقالت هيَ من خلفهِ بصوتٍ ملهوفٍ: راني حبيبي.

فالتفتَ هوَ ونظرَ إليها مذهولاً لما يرى، فاقتربت منهُ وعانقتهُ بقوةٍ وهي تقول: الحمدُ للرب أنكَ معي، أنا لا أصدقُ هذا.

أبعدَ راني يارا عنهُ بقوة ونظرَ إليها مُتمعناً ورفعَ يديه وأخذَ يمسحُ على خديها وعينيها، وهيَ تنظُرُ إليهِ واضعةً يديها على عُنقهِ، تساقطت دموعُ الفرحِ من عينيه وضمها إليهِ بقوةٍ وكأنهُ كان يخشى أن يأخذها أحدٌ من بينِ ذراعيهِ قبلَ أن يروي بعضاً من ظمأ شوقهِ إليها.

وبعد عناقٍ حميمٍ دامَ طويلاً، أمسكت هيَ بيدهِ وأدخلتهُ ليجلسا في الداخل وهو يظنُ نفسهُ يحلمُ دون أن يرغب في الاستيقاظِ من هذا الحُلمِ الجميل.

جلسَ على الأريكة وجلست على كُرسيٍ أمامهُ وكانت عيناها لا تملّان النظرَ إليه، فأمسكَ بيديها قائلاً: لماذا جئتِ إلى هُنا؟ لو أصابك مكروهٌ بسببي سأقتلُ نفسي.

لم تُجب يارا وبقيت تنظُرُ إليهِ وقالَ لها: لماذا يداكِ ترتجفان!!

ابتسمت يارا قائلة: من شدةِ الخوف بالكادِ تمالكتُ نفسي حتى وصلتُ إلى هُنا.

قبّلَ راني يديها ونظرَ إليها بحسرة قائلاً: إن هذا لن يتكررَ ثانيةً أرجوكِ، من أجلي.

ضحكت يارا وقالت: أهلاً بأبي مسلم، لن يتكررَ هذا مُجدداً أعدُكَ يا أحمد.

ضحكَ راني ووضعَ يدهُ على الغطاءِ الذي يُغطي شعرها وهو يمازحها قائلاً: إن هذا اللباس يُعجبني عليكِ عندما أعودُ إلى القرية سأجعلُكِ ترتدينهُ.

ثُمَ أنزلَ الغطاء كاشفاً عن شعرها ليجدهُ قصيراً ليس كما عهدهُ سابقاً فقالَ لها مُستغرباً: لماذا قصصته!!!... ألا تعلمين كم أحبه طويلاً.

خفضت رأسها حُزناً وردت قائلة: لم يعُد يلزمُني بعدَ أن سمعتُ خبرَ استشهادك.

رفعَ راني رأسها بيدهِ واقتربَ منها وقبلها على خديها قبلتين رقيقتين ثُمَّ قال: هكذا جميلٌ أيضاً أنتِ جميلةٌ في جميعِ الحالات.

***

خرجت ميرال من غُرفتها إلى الصالة حيثُ كانت أمل جالسةً فسألتها: أين يارا؟؟.

ردت أمل بارتباك: لم تخبرني أين ذهبت... هلَّا اتصلت بوالدتك لنطمئن إلى حال جورج؟.

ميرال: حسناً، ناوليني هاتفي النقال إنه على الطاولة التي في جوارك.

أعطتها أمل الهاتف وهي تهمس (آمل أن يكون حاله أصبح

أفضل)، اتصلت ميرال بوالدتها التي كانت لا تزال جالسة في جوار ابنها تترقب تحسن حاله وأخبرتها بعدم تغير حالته بعد.

كانت يارا تُحدثُ راني عن كُلِ ما حدثَ في غيابه، فعاتبها كثيراً لأنها تركت دراستها وانضمت إلى اللجانِ المقاتلة الشعبية وطلبَ منها أن تترُكَ العمل وتعودَ إلى دراستها لكنهُ لم يقسُ عليها فقد كانَ يعلمُ أن ما فعلتهُ كانَ بسببِ خيبةِ فقدانه، كما أنهُ فرحَ كثيراً عندما علمَ أن جورج مازال حياً وحاولَ التخفيفَ عنها ورسم الابتسامة على وجهها كي لا تشعُرَ بالذنب.

قطع حديثهما طرق على الباب ليسيطرَ الذُعرُ على قلبيهما ظناً منهما أنه رُبما يكونُ أحدهم قد اكتشفَ أمرهما، ثُمَّ اقتربت من البابِ وقالت: من الطارق؟.

فأجابها رجلٌ قائلاً: لقد أرسلَ لكِ القائدُ معي بعضَ الأشياء.

نظرت يارا إلى راني وقالت لهُ بصوتٍ خافت: اختبِئ في الغرفة بالداخل.

اختبأ راني وغطت يارا شعرها ووجهها وفتحت البابَ قليلاً ووقفت خلفهُ لتناولِ الأغراضِ من الرجل، فدفعَ الرجُلَ البابَ بقوة، كان هو الرجل نفسه الذي كان يتحدثُ عبر الهاتف النقال،دخل وأغلقَه خلفهُ فصرخت يارا خائفة: ماذا تُريد؟؟؟؟؟.

فنزعَ عنها النقابَ وغطاء شعرها بعنف وقال لها وكانت لهجتهُ غير سورية: أنتِ جميلة.

فركضت هي باتجاهِ الغُرفة لكنهُ استطاعَ إمساكها من ذراعها

ودفعها ليوقعها بقوةٍ وسطَ أرضِ الصالة، ثُمَّ أشهرَ بُندقيتهُ نحوها قائلاً: سأقتُلُكِ إن تحركتِ أو أصدرتِ صوتاً.

كانَ راني يُراقب ما يحدُث من نافذةِ الغُرفة المطلة على الصالة، ثُمَّ خَرَجَ بهدوء وضربَ الرجُلَ من الخلف بكعبِ بُندقيتهِ على أسفلِ رأسهِ.

وقعَ الرجلُ أرضاً، واندفعَ راني نحوها مساعداً إياها على النهوض ثُمّ ضمها إليهِ وهيَ مُرتجفةٌ خائفة وقال لها: اهدئي أنا هنا معكِ.

فردت عليهِ بصوتٍ باكٍ مُشيرةً بسبابتها إلى الرجُل: اقتلهُ أرجوك إنهُ لا يزالُ حياً.

أجلسَ راني يارا على الأريكة بهدوء، ونظرَ حولهُ في الصالة فرأى مجموعةً من البلاطات مصفوفةً بعضها فوقَ بعض في إحدى الزوايا، فأمسكَ بلاطتين منهُما وقام بضربِ الرجُلِ بهما بكُلِ ما يملكُ من قوة على رأسهِ حتى أيقن موته.

ثُمَ أمسكَ بالغطاءِ الذي كانت تُغطي بهِ يارا شعرها وعينيها والذي كانَ مرمياً على الأرض وجلسَ إلى جانبها على الأريكة وأخذ يمسحُ دموعها ثُمّ عانقها وهي لا تزالُ ترتجفُ من الخوف وأخذَ يُلبسُها إياه ثُمَّ نظرَ إلى عينيها بحُزن قائلاً: عليكِ الرحيل الآن، فبعدَ قليل تنطلقُ الحافلة الأخيرة اليوم من القرية باتجاهِ المدينة.

تساقطت الدموعُ من عينيها بحرارةٍ، كانت دموعاً ساخنةً تنبعُ

من جوف قلبها المُحترق على فُراقهِ، ووضعت كفيها على خديهِ قائلة: يصعبُ عليّ فراقُكَ.... سيقتلني غيابك.

ترقرقت الدموع في عينيهِ وردّ قائلاً: أرجوكِ لا تُعذبيني أكثر يا حبيبتي.

سأخرجُ الآن من المنزل وسأنتظركِ عند موقف الحافلات حتى أوقنَ أنكِ صعدتِ بأمان، أخرجي خلفي مباشرةً.

قبل أن يصل إلى الباب الخارجي عاد إليها وعانقها بكل ما يملك من قوة وهو يقول بصوت باكٍ: أريد أن أحتفظ ببعض من رائحتك وأنفاسك على ثيابي لتعطيني القوة كلما شعرت باليأس.

ثم فك عقدة شريط حريري كانت تضعه للزينة حول عنقها بلطف ووضعه في جيبه، قالت بصوتها المليء بالوجع: اعتن بنفسك لأجلي... تذكر دوماً أني أحبك... سأكون بانتظارك.

رد محاولاً إخفاء دموعه: هيّا حبيبتي عليكِ الذهاب.. قلبي سيبقى معكِ ولكِ مهما طال البعد.

أخرجت من حقيبتها هاتفها النقال القديم (تواصل معي كلما سنحت الفرصة).

***

نظرت يارا من نافذةِ الغرفة المطلة على الشارع للتحقق من خلوهِ ثم أشارت إليه بالخروج، وبعد دقيقتين خرجت خلفهُ متجهةً إلى الشارع الرئيسي، حيث وقفت تنتظرُ الحافلة بينما كان هو يقف

حزيناً مُستنداً إلى جدرانِ أحدِ الأبنية المُهدمة ينظرُ إليها بينَ الحينِ والآخر يكاد يخنقهُ غيابها من جديد وهي تبادلهُ النظرات بحزن.

قدمَت الحافلة وصعدت إليها ثُمَّ التفتت نحوَ راني مودعةً إياهُ بعينيها اللتينِ لا تقويانِ على فُراقهِ، أعطت النقودَ إلى السائق وجلست على أحدِ المقاعد وأخذت تنظُرُ إليهِ من النافذة.

تابعَت الحافلة طريقها وعادَ راني وهو يمسحُ دموعهُ التي غلبت على قوتهِ.

***

طلبت من السائقِ إيقاف الحافلة عند وصولهِ إلى مُنتصفِ الشارعِ الرئيسي لقريتها، ونزلت منها مُتوجهةً إلى أحدِ محال بيعِ شطائرِ اللحمِ وطلبت شراءَ كمية وفيرة منها، ثُمَّ أخرجت هاتفها واتصلت بوالدتها للاطمئنانِ إلى حالِ جورج، جهزت طلبية الشطائر فأخذت الكيسَ وتوجهت نحوَ منزلها وهيَ تفكرُ في حالِ راني وكيفَ عليها إخراجهُ من هناك، كما تتمنى أن يستعيدَ شقيقها صحتهُ وعافيته.

حين وصلت إلى أمامِ منزلها رفعت النقابَ عن وجهها وطرقت البابَ بلُطف، نهضت أمل التي كانت تجلسُ على الأريكة إلى جانبِ ميرال، وكانت تأملُ في نفسها أن يكون الطارق هوَ يارا فهي تخشى أن يكتشفَ أمرها أحدهم ولا تستطيعُ العودة.

عندما فتحت الباب انتعشَ قلبها عندما رأتها، وحمدت الله أنها

قد عادت بخير؛ دخلت يارا وأغلقت أمل البابَ خلفها، نظرت ميرال إليها مُتعجبةً قائلة: يارا هذهِ أنتِ!!!! لمَ ترتدينَ هذه الملابس؟

وضعت كيسَ الشطائرِ على الطاولة وردت قائلة: سأخبرُكِ بكل شيء لكن بعد أن أبدل ملابسي ونتناول الطعام.

ثمّ دخلت إلى غُرفتها وأخرجت هاتفها النقال من الحقيبة وأرسلت رسالةً إلى راني تخبرهُ بوصولها بخير، وحاولت الاتصالَ بهِ لكن رقمهُ كان خارجَ نطاق الخدمة بسبب ضعفِ شبكةِ الاتصالِ في تلك القرية فبدلت ملابسها وهيَ شاردةُ الفكرِ وكأنها قد تركت عقلها وقلبها هُناكَ وعادت بروحٍ خالية. أرسلت إليه رسالة أخرى كما اعتاد سابقاً أن ترسل إليه حيث أنها ذات أسلوب جيّد في الكتابة قالت فيها (أحببتك حباً عجزت كل كتب الأرض عن أن تشي بنصفه، حباً أبلغ من جميع اللغات وأعمق من كل تفاصيل الوصف، حباً طغى على غروري لأصبح نرجسية بك،فماذا أقول وأنا المتيمة بعد أن أخفقت كل محاولاتي في التعبير عنه)، ثُمَّ أعدت الشاي وهيَّأت طاولةَ الطعام، كان هناك دافع يجعلها تفعل كل شيء برغبة كما لم تعتد أن تفعل منذ جاءها خبر شهادة شقيقها وخطيبها.

***

حلَّ المساء... هيأت يارا نفسها للذهابِ إلى المشفى ورفضت من أمل القدومَ معها كي لا تنهكَ نفسها وهيَ حاملٌ وكي تعتنيَ هي وميرال بتدبير أمورهما.

خرجت من المنزل ووقفت على الشارعِ الرئيسي تنتظرُ وسيلةَ

نقلٍ تأخذها إلى المشفى الذي كان يقع في القريةِ التاليةِ لقريتهم، توقفت إحدى السيارات التي كانَ يقودها شابٌ فابتسمَ لها قائلاً: إلى أينَ ستذهبُ الجميلة؟.

نظرت إليه يارا ثُمَ ابتسمت قائلة: الياس!! سأذهبُ لزيارةِ أخي في المشفى.

الشاب: هيا اصعدي، سأوصلكِ بطريقي فأنا ذاهبٌ لزيارةِ صديقي.

صعدت يارا وجلست في جوارِ الياس وأخذت تحدثهُ قائلة:متى عُدتَ من دمشق؟

الياس: البارحة،.. كيفَ أصبحَ شقيقكِ؟

ردت يارا حزينة: إنهُ لم يستعد وعيهُ حتى الآن.

الياس: لا تقلقي سيصبحُ بخير بإذن الرب.

أسندت يارا رأسها إلى النافذة، فلقد كانت مُتعبة ومُتوعكة، فهيَ لم تنم منذُ الأمس وتعرضت لكثيرٍ من الأحداثِ الصعبة.

***

نزلت من السيارة وبيدها كيس فيه طعام أحضرته لوالدتها وأثنت على الياس لمساعدته لها، دخلت إلى المشفى، ولما وصلت إلى غُرفةِ جورج وجدت والدتها نائمةً وهي جالسة على الكُرسيِ من شدةِ التعب، فاقتربت من شقيقها وقبلتهُ بلطفٍ من جبينهِ، ثُمَ أيقظت والدتها بهدوء فنظرت الوالدة إليها وقالت بصوتٍ خافت: أهلاً يا حبيبتي.. لماذا تركتِ ميرال وحدها؟

ردت يارا أيضاً بصوتٍ خافت: إنها ليست وحدها سأخبرُكِ كُلَّ شيءٍ بعد قليل، اخرجي الآن وتناولي الطعام فقد وضعتهُ لكِ في أحدِ المقاعدِ إلى جانبِ الغُرفة.

الوالدة: لا أريدُ يا ابنتي لا أرغب في الطعام.. أريدُ أن أطمئن إلى شقيقكِ أولاً.

يارا: افعلي كما طلبتُ منكِ وإلا سأحزنُ حزناً شديداً.

خرجت الوالدة وجلست على المقعد وأخذت تتناولُ الطعام.

***

جلست يارا على الكُرسي الذي في جوارِ سريرِ شقيقها ووضعت يدها فوقَ يدهِ وأخذت تُخاطبهُ قائلة:

أخي يا توأمي أحبكَ كثيراً ليتني فارقت حياتي قبلَ أن أُطلقَ النارَ عليك... أرجوكَ يا أخي أن تستيقظ اشتقتُ إليك كثيراً.. هل تذكر كم كنا نتشاجر؟ انهض لنتشاجر من جديد... أتذكرُ عندما كُنا أطفالاً كيفَ كنتَ تغارُ مني وتأخذُ لعب العرائس التي كانت تشتريها لي والدتي وتمزقها؟ انهض ومزقني إذا أردت لكن كن بخير، فقلبي لا يتحملُ فقدانكَ مرةً أخرى..

لقد جاءت أمل وأخبرتني أنكَ ستصبحُ أباً آمل أنه سيكون بوسامتك ورجولتك.... انهض أرجوك سعادتنا بين يديك.

دخلت الطبيبة وطلبت من يارا الخُروج لتطمئنَ إلى حالهِ،

فمسحت الدموعَ من على خديها وخرجت لتجلس في جوار والدتها في الخارج، وبدأت الطبيبة عملها.

***

خرجت الطبيبة وأخبرتهُم أن وضعهُ مُستقر وعليهم فقط انتظارهُ حتى يستعيدَ وعيهُ.

سُعدت الأمُ وابنتها بهذا الخبر وأخذت يارا تُخبرها بما حدثَ في غيابها ووالدتها تشكرُ الربَّ وتباركُ لها كونَ راني سالماً، ثُمَّ دخلتِ وجلست في جوارِ ابنها مُنتظرةً استيقاظهُ، أما يارا فبقيت جالسةً على المقعدِ في الخارج لأنهُ لا يسمحُ إلا لشخصٍ واحد أن يبقى عند المريض، أمسكت هاتفها لتجد رسالتين من راني، أخذت تقرأهما واحدة تلو الأخرى مبتسمة وقد كتب «منذ ذهبتِ وأنا لا أرى شيئاً سوى عينيكِ، لقد تركتِ لي في هذا المكان ذكرى تجعلني أتقبلهُ ولو قليلاً».

«جميلتي لما قابلتها أعطيت روحي لها كنت أحيا قبلها لكنني الآن لا أحيا إلا بها».

ثُمَ حاولت الاتصال به لكن دون جدوى.

***

حلَّ الصباح مُشرقاً لطيفاً، كان علي واقفاً على أحدِ الحواجزِ في إحدى طُرقات مدينةِ حمص حيثُ كانَ عملهُ أن يرى البطاقات

الشخصية ويفتش السيارات،فقدم إليهِ خالد الذي كان مُرتدياً زيهُ العسكري ويكادُ ينامُ وهوَ واقفٌ، استلمَ خالد مكانَ علي الذي انتهت مناوبتهُ واتجهَ نحوَ غُرفتهِ فناداه خالد قائلاً: علي هل ستنام؟

علي: لا سأذهبُ إلى المشفى لعلي أرى يارا هُناك.

خالد: كأنكَ مُهتمٌّ جداً بشأنها؟

علي: وأنتَ ألستَ مُهتماً بشأنِ ميرال.

خالد: في الحقيقةِ نعم ولو لم يكن لديّ مناوبةٌ لذهبتُ معك.

ثُمَّ دخلَ إلى غُرفتهِ وبدلَ ملابسهُ العسكرية بلباسٍ مدني، ووقفَ على الحاجز في جوارِ خالد وصعدَ في إحدى السيارات المتجهة نحو القرية التي يوجدُ فيها المشفى.

***

حين وصلَ علي إلى أمامِ غُرفةِ جورج وجد يارا نائمةً على المقعد يستند رأسها إلى الجدارِ الذي خلفها، فجلسَ على المقعدِ المجاورِ لها وأخذَ يتأملُ تفاصيل وجهها البريء الذي لا تبدو عليهِ القسوة التي أظهرتها لهُ عندما رآها أولَ مرة.

فتحت يارا عينيها ببطء ثُمَ نظرت إلى علي قائلة: علي!!!!.

ردَّ علي مُبتسماً: جئتُ لأطمئنَ إلى شقيقكِ، هل تسمحينَ لي أن أُخبركِ شيئاً دونَ أن تصفعيني مرةً أخرى.

ضحكت يارا وردت قائلة: أخبرني ولن أصفعكَ.

علي: أنتِ جميلةٌ جداً خصوصاً وأنتِ نائمة.

احمرت وجنتا يارا خجلاً ولم تعرف ماذا تُجيب،في حين فتحت الوالدةُ باب الغُرفة وهيَ تصرخُ من شدةِ الفرح قائلةً: جورج استيقظَ يا يارا.

دخلت يارا مُسرعة وتبعها علي، فأخذت تنظُرُ إلى شقيقها الذي كانَ ينظرُ إليها وإلى والدتهِ مُبتسماً وقد نسيَ ألمَ جُرحهِ لسعادتهِ برؤيتهما من جديد، كانت والدتهُ تمرّر يدها على شعرهِ بلطف وهيَ تبكي قائلة: الحمدُ للربِ على سلامتك يا بني.

أما يارا فاقتربت منهُ وجلست على الكُرسي في جوارهِ وأمسكت يدهُ وأخذت تُقبلُها قائلة: سامحني يا أخي أرجوك.

بينما دخلت الممرضة والطبيب وطلبا من الجميعِ الخروج لإجراءِ بعضِ الفحوصات خرجت الأُم وأمسكَ علي ذراعَ يارا وساعدها على الوقوف ثُمَّ أخرجها برفق لأنها لم تكن تقوى على مفارقةِ شقيقها التوأم.

اتصلت يارا من شدةِ فرحها بميرال وأخبرتها باستعادةِ جورج وعيه ثُم أرسلت رسالةً إلى راني أخبرتهُ فيها بذلك.

***

غمرَ الفرحُ قلب أمل عندما أخبرتها ميرال بتحسّنِ حالِ جورج وقالت بحسرة: ليتني أستطيعُ الذهابَ لرؤيته.

ابتسمت ميرال وردت قائلة: كيفَ ستكافئينني إن ساعدتُكِ بالذهابِ إليه.

اقتربت منها أمل بلهفة وأمسكت يدها قائلة: سأفعلُ كُلَّ ما تريدين.

ميرال: حسناً عزيزتي ادخلي إلى غُرفةِ يارا وافتحي خزانتها واختاري الثيابَ التي تُعجبُكِ وارتديها وأنا سأُخبرها أني طلبتُ منكِ هذا ثُمَّ اذهبي لكن لا تتأخري فأنا وحدي.

برقت السعادةُ في عيني أمل وأجابت قائلة: حسناً لن أتأخر.

ثُمَّ دخلت مُسرعةً إلى غُرفةِ سارة واختارت ثياباً أنيقة وأخذت ترتديها.

***

خرجَ الطبيبُ والممرضة من غُرفةِ جورج وطمأن الطبيبُ الجميع إلى حالهِ وأنهُ يحتاجُ إلى بضعةُ أيامٍ لإعادتهِ إلى المنزل، وطلبَ منهُم أن لا يتعبوهُ بكثرةِ الكلامِ أو أن يزعجهُ أحدُهم بخبرٍ ما.

وصلت أمل إلى المشفى وسألت في مكتبِ الاستعلامات عن رقمِ غُرفتهِ ثُم توجهت نحوَها مُسرعة فطرقت الباب مُرتبكة ودخلت، نظرَ جورج إليها وبرقَ حُبُها في عينيه، فألقت التحية على الجميع واقتربت منهُ وطبعت على خديهِ قُبلتينِ رقيقتين وقالت والدموعُ تترقرقُ في عينيها: الحمد لله أنكَ بخير.

فأمسكَ هوَ يدها وقبلها قائلاً: الحمد لله أنكِ معي يا حبيبتي.

ابتسمت يارا ونظرت إليهما قائلة: ما هذا أيُها الشقي... وأنا ألستُ حبيبتكَ؟.

فضحكَ جورج وردَّ بصوتٍ مُتألم: جميعكم أحبائي.. وعلي حبيبي أيضاً.

ضحكَ علي، ونظرت أم جورج إلى أمل وقالت لها: كيفَ حالُ ميرال؟.

أمل: إنها بخير يا خالتي.

نظرَ جورج إلى أمل ثُمَّ قال: لماذا لم تأتِ معكِ؟.

يارا: بقيت لتعتني بأمِ راني فهي مُتعبة قليلاً.

دخلت الممرضة وطلبت من جميعِ الزائرين المغادرة وأن يبقى شخصٌ واحدٌ برفقته، فنظرت إليهم أمل متوسلةً قائلة: هل بإمكاني أن أبقى أنا؟

يارا: حسناً ابقي أنتِ، فأمي مُتعبة أيضاً يجبُ أن تعودَ إلى المنزل لتستريح قليلاً.

***

غادرَت يارا ووالدتها إلى المنزل وطلبت أم جورج من علي أن يأتي معهما لتناولِ الغداء وألحت في طلبها، فوافقَ على الذهاب، كان يُلاحقُ يارا بنظراتهِ طوالَ الطريق كأنه يوشكُ على أن يقعَ في شباكِ حُبها. كلمته مازحة وهي تجلس في جواره في الحافلة: هل لا تزال تذهب لرؤية فتيات مجهولات الهوية؟؟.

تمعن في عينيها مجيباً وهو يضحك: لا لقد علمتني تلك الصفعة درساً، فخدي يؤلمني منذ البارحة.

ضحكت ضحكة أربكت قلبه في تفاصيلها.

***

كانت أمل جالسةً إلى جانبِ جورج الذي حقنه الطبيب بإبرةٍ لتهدئةِ الألم ونامَ من بعدها وهو يمسك بيدها بينما تتأملُ وجههُ وتشكُرُ الله الذي أعادها إلى الحياةِ من بعد أن قتلها خبرُ مقتله. لقد أصبح لديها الأمل بحياة أفضل وأكثر استقراراً بعد أن عاشت لحظات عصيبة من اليأس والظلم في ماضيها خصوصاً حين انفصلت والدتها عن والدها بسبب اختلاف الطائفة بعد أن انتزع منه واحد ممن يدعون الدين أفكاره المتزنة وقام بإبدالها بمعتقدات متشددة أدت إلى إرغام ابنته على الزواج من أحد المسلحين رغم رفضها.

***

أوصلَت يارا والدتها إلى المنزِل مع علي ثُمَّ ذهبت برفقتهِ لشراءِ بعضِ الوجباتِ السريعة، وكانا يتحدثانِ طوالَ الطريقِ وهو لا يفارقُ النظرَ إلى عينيها عندما تنظرُ إليه.

نظر إلى يدها ثم قال: هل أنت مخطوبة؟.

يارا: نعم كان من المفترض أن أتزوج منذ خمسة أشهر.

علي: لماذا لم يحدث إذاً؟.

ردت يارا بحسرة: إنه محتجز في القرية التي كان فيها جورج ولا أعلم متى سيتمكن من الخروج؟.

علي: وهل ستنتظرينه؟... ماذا لو تأخر كثيراً؟.

يارا: سأنتظره مهما تأخر.. أحبه منذ الطفولة تربينا معاً.

قال متأسفاً عندما رأى الحزن أخذ يشق طريقه إلى عينيها: آسف لم أقصد إزعاجك.

***

دخلت أمُ جورج إلى المنزل، ثُمَّ توجهت إلى غُرفةِ ميرال بعد أن وجدت الصالة فارغة، فتحت البابَ بهدوء لتجد طفلتها الصغيرة مُستغرقة في النوم، فجلست في جوارها على السرير وقبلتها من جبينها، فتحت ميرال عينيها ونظرت إلى والدتها وهيَ تشعرُ بالذنب قائلة: هل ما زلتِ غاضبةً مني؟.

ابتسمت الأمُ ابتسامةً رقيقة: لا يا صغيرتي فأنتِ وإخوتكِ أغلى الناس عندي.

ميرال: كيف حال جورج؟ ألم يطلب رؤيتي؟.

الأم: بخير بقيت أمل عنده، سأل عنك وقلنا له إنك متوعكة وبسبب ذلك لم تأتي، إنه يتوق شوقاً إليكِ.

ميرال: وأنا كذلك، آمل أن لا يغضب مني حين يعلم ما حدث.

مسحت بلطف على جبين ابنتها: لا عليكِ لن أدعه يغضب، والآن انهضي لقد ذهبت يارا مع علي لإحضار الطعام.

تعجبت ميرال:علي!!!.

الأم: نعم جاء إلى المشفى ليطمئن إلى حال جورج، هيّا بلا كسل.

***

بعد بضعةِ أيام خرجَ جورج من المشفى وأصبحَ يتقاسمُ غُرفتهُ مع أمل،كانت شريكةَ حياتهِ التي يرغب أن يتقاسم معها كل شيء، لم تشعر بالغربة قطّ اعتبرت عائلته عائلتها حيث عملوا على إراحتها من جميع أشغال المنزل لتتفرغ للعناية بزوجها وجنينها فقط.

***

استدعى القائد راني إلى مجلسهِ، فألقى راني التحيةَ عليهِ ودخل، ردّ التحية ثُمَّ قالَ له: يجبُ عليكَ أن تتزوجَ وتنشئ أسرة فإنَ بقاءكَ وحيداً وانعزالكَ لا يُعجبني.

ارتبك راني ورد قائلاً: سيدي إذا أردتَ أن تزوجني فأنا أريدُ أن أتزوجَ زوجةَ صديقي أبي عمر رحمهُ الله(أمل) لأنه أوصاني بها قبلَ استشهاده.

طبطبَ القائدُ على ذراعِ راني بلطف قائلاً: باركَ اللهُ فيك يا بني.

في هذه الأثناء طرقَ أحدُ الرجالِ بابَ المجلس فأذنَ لهُ القائد بالدخول، قالَ الرجلُ الطارق: سيدي هناكَ رائحةٌ نتنة تخرجُ من منزلِ أبي قتادة (زوج أمل السابق) رحمهُ الله وقد طرقنا باب المنزل دونَ إجابة.

القائد: خذ بعضَ الرجال واخلعوا الباب واستكشفوا الأمر.

علمَ راني أن جُثةَ الرجُلِ الذي قتلهُ قد تعفنَت وأنهُم سيعلمونَ برحيلِ أمل ويزوجونهُ بغيرها، فاستأذن القائد بالخروجِ عائداً إلى غُرفته.

***

أخرجَ الرجالُ جُثةَ الرجلِ المتعفنة من منزلِ أمل وظنوا أنها قد أوقعت به وقتلتهُ ثم غادرت القرية هاربةً من عقابِ ذنبها، عاد الرجل الذي أخبره القائد بأن يستطلع الأمر إلى مجلس قائده قائلاً: سيدي وجدنا في المنزل جثة لأحد رجالنا، والمرأة التي كانت تقطن المنزل غير موجودة.

رد القائد غاضباً: قم بضم هذا المنزل إلى ممتلكاتنا، سأعطيه لخيرة رجالي كي يقطنوا فيه.

***

كان راني مستلقياً في سريره يفكر في أموره التي تؤول إلى التعقيد أكثر يوماً بعد يوم، ثم قالَ في نفسهِ حزيناً: أنا عالقٌ هُنا وربما لن أخرجَ أبداً، لقد تحطمت حياتي ومستقبلي، لقد أصبحتُ سببَ حزن وتعاسة من أحببت، كم ستحزن يارا إن فُرضَ عليّ الزواج بأخرى، لا أظن أنني قد أتمكن من أن أتعايش مع هذا، إنها الحلم الذي كبر في قلبي، لطالما صحوت وغفوت وأنا أتخيلها مستلقية في جواري، يا إلهي كم سأشعر بالخيبة إن وجدت غيرها في المكان الذي كنت أسعى لأن

تكون هي فيه، سأموت متحسراً لو أصبحت لغيري بعد أن كبرت معي وبين يدي، امنحني الصبر يا يسوع، فقلبي لم يعد يحتمل.

***

حلَّ المساءُ لطيفاً، ميرال تُحدثُ خالد عبرَ هاتفها النقال سعيدة لاهتمامهِ بها، أمل جالسةٌ مع جورج في غُرفتهِ تناولهُ الطعامَ بيدها وتسقيه العصير، يارا ووالدتها تجلسانِ في الصالة تتابعانِ إحدى قنواتِ الأخبارِ التي لم يعد فيها سوى الحديثِ عن القتلِ والخطفِ والانقساماتِ والتفجيراتِ والهجرة، أمسكت يارا هاتفها للاتصال براني لكن الشبكة كانت غير متاحة فتنهدت بعمق، نظرت إليها والدتها: ما بكِ يا روح والدتك.

طبعت قبلة على جبين والدتها ثم قالت: لا شيء أمي، سأخلد إلى النوم تصبحين على خير.

الأم: وأنت بخير، غطي نفسك جيداً الجو يصبح بارداً عند الفجر.

يارا: أمرك يا غاليتي.

***

جمعَ قائدُ المجموعاتِ المُسلحة رجالهُ ليلاً أمامَ القيادة، وأخذَ يقرأُ لهم أسماءَ الرجالِ الذي يريدُ أن يرسلهم إلى محافظةِ حماة لمؤازرة المسلحين الموجودين في إحدى قراها، صدرَ اسمُ راني من بينِ الأسماءِ، وعندَ انتهاءِ الاجتماع تبع القائد متحدثاً إليه وقلبهُ

يتمزقُ، فَكُل شيءٍ يبعدهُ عن قريتهِ وأهلهِ أكثرَ فأكثر: أرجوكَ يا سيدي أبقني هنا فأنا مُرتاحٌ هكذا في ظلِ قيادتكَ الحكيمة.

القائد: لا تقلق يا بني ربما ينتظرك شرف الشهادة هناك وإن لم تنل هذا الشرف فسوفَ يعاملكَ صديقي المسؤول هناك أفضلَ من معاملتي.

راني: لكن....

لم يترك القائد راني يكمل كلامهُ فقالَ لهُ: من دونِ لكن، لا تقلق.. سأوصي بكَ صديقي جيداً والآن اذهب.

ذهبَ راني والدموعُ تكادُ تتساقطُ من عينيه، وعادَ إلى غُرفتهِ مُغلقاً البابَ خلفهُ بإحكام وأخذَ يحاولُ الاتصال بيارا مراراً وتكراراً.

***

حلَّ منتصف الليل ويارا لا تزال مستيقظة تحاول الاتصال براني، وعندما أصبحت الساعة الثانية عشرة أخذت ترسل إليه بالرسائل لمعايدته بمناسبة مرور سنة على خطبتهما كتبت فيها:

«فشلت كل أيام العمر في أن تبوح بحجم حبي لك.. فما بالك بيوم عليّ أن أكتفي فيه بالإفصاح عن حبي وقد أخفقت كل لحظات اللقاء أن تصف اندماج روحي فيك..... كل عام وأنت حبيبي... كل عام ونحن معاً حتى نهاية الكون... أحبك».

«بدأت بكَ وبكَ سأنتهي، من حافة الحب هويت إلى قاع عشق أعمق لأغوص في تفاصيلك وأهوى حتى أسوأها لأنساب مع كل

التناقضات وأتناغم حتى مع ما يؤلمني منها، فيتيمني حبك المنكه بالعذاب ويجذب كل حواسي المغرمة بك إليك».

«لست في حياتي حدثاً عادياً، تبقى أنت مدينة الفرح التي ألتجئ إليها عندما يطاردني حزني، تبقى ذاك الصوت الانسيابي الذي يسرقني ممّن حولي، لست رجلاً من كلمات بل رجلاً من أفعال فإن براهينك تسبق الفرضيات دوماً، لست سائلاً رخواً يحتويه أي إناء، إن الإناء هو من يحاول التلاؤم ليناسبك فمشاعرك ثمينة لا تمنح إلا لمن يستحقها».

ثم خلدت إلى النوم وهي تأمل أن تستيقظ على صوت رسالة منه أو مكالمة هاتفية.

***

استلقى راني على سريره يحتضن ربطة العنق الحريرية التي كانت تضعها حبيبته آخر مرة بعد أن تعب من محاولة الاتصال الفاشلة بها، أيقظ عينيه اللتين كانتا توشكان على الإغلاق من النعاس الضوء الذي انبعث من شاشة هاتفه النقال عندما وصلته رسالة يارا وعلم حينذاك أن شبكة الاتصال قد تحسنت ويمكنه الاتصال بها الآن، أخذ يقرأ رسالتها وعيناه تكادان تحتضران من الدموع، ثم اتصل بها محاولاً تمالك نفسه لتجعله الظروف يحكم مرغماً بإعدام قلبه وتعاستها.

استيقظت على رنينِ هاتفها، وعندما رأت أن المتصل راني

نهضت جالسةً وردت بلهفة قبل أن يلقي عليها التحية: راني حبيبي، اشتقتُ إليك.

ردّ وهو يحاولُ أن يكونَ قاسياً ليساعدها على نسيانهِ ويجعلها تتابعُ السعي وراءَ مُستقبلها: يارا... أنا لم أعد أريدك.... انسيني.... لا تنتظريني بعد الآن.

انقبضَ قلبُ يارا من كلامِه: ما هذا المزاح!!!! إنه لا يعجبني.

راني: لن أستطيع الخروج من هنا... تابعي حياتك كأنني لم أكن فيها.

ردت بصوت تملأه الغصة: سأنتظرك مهما طالَ غيابُك... لا أستطيع الاستمرار من دونك.. أنت كل شيء.

كانت كلماتها تكسر روحه لكنه بقي يتظاهر بالقوة لأجل أن يحررها منه: لكنني أستطيع وسأكملها لذا لا تأسريني أكثر من ذلك.... فهمتِ لم أعد أرغب فيك لتكوني زوجتي.. وسأتزوج بأخرى.

غرقت عينا يارا بالدموع قائلة: هل أنت جاد في هذا؟؟؟ أم تمازحني؟؟؟ أنا متيقنة بأنك تمزح... لا تمزح معي بهذه الطريقة أرجوك.

غصَّ قلبُه حين حاول أن يسكت صوته الذي يناجيها: أنا جاد... لا تتصلي بي مرة أخرى... هل فهمت؟؟؟ لا تتصلي.

أنهى المكالمة بعد أن سمع أنين بكائها والتمس قلبه حزنها خاشياً أن يخشع قلبه لكل تلك الرقة، كان دوماً يكن الكراهية تجاه

أي شيء يعكر صفوها ويحزنها، والآن أصبح يكن بها لنفسه ولكل تلك الظروف التي أجبرته على أن يتظاهر بهذه القسوة، وضع يده على عينيه وبكى كما لم يبكِ رجل على امرأة من قبل.

أما هي فآهات بكائها كانت مسموعة في أرجاءِ الغرفةِ ودموعها تنهمرُ بغزارة حتى كادت تُغرق وسادتها. أصبح حبها له بالنسبة إليها حباً جمع كل خيبات العمر وأودى بتوقعات متأملة إلى الهلاك، أصبح إعصاراً وثورة استنزفت فيها كل مشاعرها، خلفتها كأرض جرداء أصابها القحط، لم يسقها بل زادها ظمأً، جاءها كما يسرق الحلم عقل نائم، وسلب منها نجوى قلبها ومضى وهي في غفلة تطيل النظر إلى عينيه.

أمسكت هاتفها من جديد وأخذت ترسل إليه برسائل كتبت فيها:

«كم هو قاسٍ أن أقول لك أحبك فتجيبني بلا أريدك».

«يا إلهي كم هذا مؤلم بقدر حبي لك جاءت قوة صفعة الخيبة».

«أحببتك كوطن نبذتني كغربة، ماذا أفعل بعد أن شردتني رامياً بي خارج حدود قلبك، أين أذهب بنفسي وأين الطريق».

«أكرهك... لكن بقدر ما أكرهك أحبك أكثر وأكثر وأكثر... أرجوك أعد النظر في الموضوع».

قرأ راني الرسائل وأجابها «انتهينا، امضي في طريقك، ابحثي عن مستقبل أفضل»، أمسك الشريحة الهاتفية وكسرها بعد أن حطم الهاتف النقال وهو يدهسه بقدمه ثم أخذ يلكم الحائط بيديه لعل

هذا الألم الخارجي يهون احتراقه من الداخل وعيناه تذرفان الدموع حتى سالت الدماء منهما، فمن يسكت ذاك الجرح الملتهب ليلاً مناجياً اشخاصاً انقطع أملنا من وصالهم واخترنا بإرادتنا بعدنا عنهم لكن قلبنا لم يوافقنا فنزف فيه جرح عميق يدعى الحنين وكانت دماؤه من ذكريات ووعود.

***

كان علي لا يزال مستيقظاً في مناوبة حراسة ليلية، مرت يارا في باله وقال في نفسه (سأتصل بها إن كانت مستيقظة سأقول لها إني كنت أنوي أن أحدث صديقي واتصلت بها عن طريق الخطأ).

رنّ هاتفُ يارا النقال مُجدداً، ردت مُسرعةً ظناً منها أن راني كانَ يمازحها وأعادَ الاتصالَ ليخبرها بذلك، قالت بصوتٍ بالكادِ يكونُ واضحاً من شدةِ البكاء: ماذا تريد؟ ألم تقل لي إنك لا تريدني؟.

فأجابَ علي قلقاً: يارا ما بكِ؟ لماذا تبكين؟.

ارتبكت يارا وحاولت تمالكَ نفسها لكنها لم تتمكن من ذلك وردت قائلة: آسفة، ظننتكَ راني.

علي: اهدئي... ما بكِ؟.

لم تستطع يارا التوقفَ عن البكاء قائلةً: أرجوك اتركني وشأني الآن... سأكلمُكَ لاحقاً.

ثُمَّ أنهت المكالمة وحضنت وسادتها وأخذت تبكي بحرقةٍ

بينما حاول هو الاتصال ليكلمها مجدداً ويطمئنَ إلى حالها لكنها لم تكن تجيبهُ.

***

ذهبَ علي إلى غرفته التي كان يتشارك بها مع خالد وأخذ ينقر على كتفه قائلاً: خالد... خالد... استيقظ.

فتح خالد عينيه اللتين يغلبهما النعاس: هل حان وقت مناوبتي؟؟؟.

علي: لا.. انهض واتصل بميرال هيَّا.

خالد: لماذا!!!؟؟.

علي: اتصل بها الآن سأخبرك لاحقاً... هيَّا.

اتصلَ خالد بميرال موقظاً إياها من النوم، وعندما أجابت أخذَ علي هاتفه المحمول وقالَ لها: مرحباً ميرال أَنا علي، أينَ يارا؟

ردت ميرال وهي تكادُ تنامُ وهي تحدثهُ: إنها في غُرفتها، لماذا؟.

علي: من بعدِ إذنكِ اذهبي إليها واطمئني إلى حالها.

ميرال: لماذا؟ ما بها؟

علي: أرجوكِ افعلي كما طلبت.

ميرال: حسناً، انتظر قليلاً.

تركت هاتفها النقال على السرير وخرجت من غُرفتها نحوَ غُرفةِ يارا، وطرقت الباب بلطف فتظاهرت يارا بالنوم لأنها لم تكن ترغبُ في رؤيةِ أحد أو في الحديثِ مع أحد.

دخلت لتجدَها نائمة وكلُ شيءٍ على ما يرام، عادت إلى غُرفتها وأمسكت هاتفها قائلة: إنها نائمة، لماذا أنت قلقٌ هكذا.

علي: لا شيء، لا تهتمي.

ثُمَ أعادَ الهاتفَ إلى خالد الذي أخذَ يحدثُ ميرال بعد أن هربَ النُعاسُ من عيونهما.

***

حلَّ الصباحُ هيَّأ علي نفسهُ للذهابِ إلى منزلِ يارا ليطمئنَ إليها بحجةِ أنهُ يريدُ تهنئةَ شقيقها على عودتهِ، بينما طلبَ خالدٌ من أحدِ أصدقائه أن يتبادلا أدوار المناوبة ليستطيعَ الذهابَ مع علي ليرى ميرال.

اشترى كل من علي وخالد باقتي أزهار ثُمّ استقلا سيارةً نحوَ القريةِ.

***

كان جورج جالساً في جوارِ يارا على السرير في غُرفتها يحاولُ أن يفهم منها سبب حزنها بعد رفضها تناول وجبةِ الإفطارِ مع الجميع عندما دعتها والدتها إلى ذلك.

جورج: حبيبتي يارا ما بكِ؟.... كلميني يا شقيقتي... ماذا حدث؟

كانَت يارا جالسةً على سريرها خافضةً رأسها صامتةً وعيناها

اللتان كانت الدموعُ تترقرقُ فيهما كانتا ترويانِ حكايةَ حُزنٍ عميقٍ أضعفَ فؤادها.

أخذَ جورج يمرّرُ يدهُ على شعرها بينما كانت والدتها وميرال تقفانِ عندَ بابِ غُرفتها قلقتينِ بشأن حالها وقال برفق:

سأحزنُ جداً إن لم تخرجي لتناولِ الفطور وتخبريني من أحزنكِ كي أقتلهُ.

رفعت يارا رأسها ونظرت إليهم جميعاً والدموعُ تتساقط من عينيها قائلة: أرجوكم اتركوني وحدي.... سأخبركم بكلِ شيءٍ لاحقاً، أنا مُتعبةٌ الآن.

قبّل جورج جبينَ شقيقتهِ، ثُمَّ خرجَ وطلبَ من والدتهِ وميرال أن تخرجا وتتركاها لترتاحَ قليلاً.

***

كانت أمل لا تزال نائمة في غُرفتها متوعكة بسبب حملها، دخل جورج إليها، جلس إلى جانبها وأخذ يلاعب شعرها بيديه قائلاً: أملي، انهضي الإفطار جاهز.

فتحت عينيها وابتسمت:صباح الورد حبيبي.

جورج: صباح هذه الابتسامة الجميلة، هيَّا انهضي.

خرجت معه وهيَ مُتعبةٌ تشعرُ بالوهنِ، جلسوا جميعاً يتناولونَ الفطور ويتساءلونَ في ما بينهم عن السببِ الذي يُحزنُ يارا، حاول

جورج أن يتصل براني ليحدثهُ لعله يعلمُ ما الذي يحزنها لكن رقمه كان خارج التغطية.

***

صعدَ راني في الحافلة الكبيرة المكتظة بالمسلحين المتجهة إلى إحدى القُرى في ريفِ محافظةِ حماة وقلبهُ يبكي صامتاً على ما يحدُث، جلس على مقعد بالقرب من النافذة ينع أحلامه وينظر إلى الأفق حيث تلوّح له قريته بالوداع كغريب في وطنه.

***

دخلت أم راني مع مجموعة من النساءِ إلى المنزل لتهنئةِ جورج على سلامتهِ وأخذت أم جورج تُرحبُ بهم، كانَ وجودُ أمل غير مرغوب فيه من قبلهم، فقد كانوا لا يبدونَ لها اهتماماً لأنها غريبةٌ عنهم ومن قريةٍ معاديةٍ لقريتهم، فقد كان أساس هذه الحرب نشر الفتنة بين أبناء الشعب الواحد لتسهيل التجزئة ولتصبح سوريا لقمة سائغة لمن يرغب في اغتصابها.

أحست أمل بالحزنِ لأن النساءُ يتجاهلنها على الرُغمِ من أنها كانت تجلسُ معهن للقيامِ بواجبهن مع أم جورج وميرال على الرغمِ من توعكها، فأخبرت أم جورج أنها ستدخلُ إلى غرفةِ ميرال للاستلقاءِ وأخذِ قسطٍ من الراحة، همست أم راني بأذن ميرال بصوت: أين يارا؟.

ميرال: إنها في غرفتها نائمة متوعكة قليلاً.

أم راني: اتصلي براني، اشتقت أن أحدثه.

ميرال: اتصل به جورج منذ قليل، إن خط هاتفه مغلق.

أم راني: حسناً يا ابنتي إذا اتصل بكم أو استطعتم مكالمته أخبريني.... فليحمه الرب.

***

طُرقَ البابُ وخرجت ميرال من غُرفةِ جورج لفتحه، ولما رأت أن خالداً وعلياً هما الطارقان، غمرت الفرحةُ قلبها لرؤيةِ خالد واستغربت قدومهُما، فخالد لم يُخبرها مُسبقاً أنهُما ينويان المجيء.

ألقيا التحية وعندما صافحَ خالدٌ ميرال بقيَ ممسكاً بيدها قليلاً وعيناه لا تفارقان عينيها، قاطعهما علي قائلاً: أينَ يارا؟.

ميرال: إنها نائمةٌ في غُرفتها، تفضلا الآن.

دخلا غُرفةَ جورج وهنآهُ على سلامتهِ واضعينَ باقتي الأزهارِ على الطاولةِ التي كانت في جوارِ سريرهِ.

ولما غادرت النساءُ نظرَ جورج إلى علي قائلاً: أنتَ صديقُ يارا أليسَ كذلك؟

علي: نعم.

جورج: هل أحزنتها؟أو هل تعلمُ عن شيءٍ يُحزنها؟.

علي: لا.. لكن هل تسمحُ لي أن أذهبَ إليها وأحدثها قليلاً.

ابتسمَ جورج ونظرَ إلى ميرال قائلاً: أرشديهِ إلى غُرفتها.

***

طلبَ جورج من خالد أن يساعدهُ على النهوضِ من السرير، ومضى مُتجهاً نحوَ غُرفةِ ميرال ليتحدثَ مع أمل بينما عادت ميرال إلى غُرفةِ جورج وجلست تحدثُ خالد الذي كانَ وحيداً، أما أم جورج فكانت تُعدُّ الضيافةَ.

أخذَ خالد ينظرُ إلى ميرال ويحدثها وهي مُرتبكةٌ قائلاً: لقد اشتقتُ إليكِ، هل ما زالت كتفكِ تؤلمكِ؟

ردت ميرال وقد احمرت وجنتاها: وأنا أيضاً، لقد أصبحت أفضلَ من قبل.

***

جلس جورج في جوار أمل على السرير وقال: آمل أن لا تكوني قد انزعجت من نساء قريتنا، سيعتدنك لاحقاً وسيبادلنك المودة صدقيني.

أمل: هل سيتقبلن اختلافنا؟.

جورج: حتى وإن اختلف الطريق أو التوجه لن يستطعن إنكار أننا انبثقنا من روح واحدة وأننا متحدان رغم كل تباين بيننا، فالروح المزدوجة تبقى متحدة حتى لو ابتعدت الأفكار أو الجسدان بعد السماء عن الأرض.

فرحت من كلماته، فأمسك يدها بقوة قائلاً: هيَّا انهضي، لا يجوز أن نترك الضيوف وحدهم.

***

كانَ علي جالساً على الكرسي في جوارِ يارا التي كانت لا ترغبُ في أن تُحدثَ أحداً، لا يدري من أينَ يبدأُ الكلام بعد أن ألقى عليها التحية دون أن تجيبهُ ثُمَّ قال مُرتبكاً: هل أنتِ حزينةٌ بسبب خطيبكِ راني؟... أياً كانَ سببُ حزنكِ فهو لا يستحقُ أن يُحزنكِ هكذا.... فإنَّ الفرحَ يليقُ بكِ أكثر... حتى وأنتِ حزينةٌ جميلة لكنك تُلبسينَ الفرح ثوباً أجمل.

باحت عيناها بما لديها قبل فمها: سوفَ يتزوج بأخرى ولن يعودَ إلى هُنا.. لقد قالَ لي هذا دونَ أن يكترثَ... قال لي: لا أريدك، لا أدري كيف استطاع أن يكلمني هكذا لكنه فعل.

اقتربَ علي منها وجلسَ في جوارها على السرير ووضع يداً فوق يدها ومسح بالثانية دموعها، لم تكن هي الوحش الأنثوي الذي رآه أول مرة، كانت كتلة من الرقة والطفولة التي أخذت تتحكم في قلبه، قال لها مواسياً: هوني عليكِ.. لا تبكي... لا يليق بكل هذا الجمال أن يبكي.. اصفعيني إن كان هذا سيهون عليكِ، لكن ليس كالصفعة السابقة فهي مؤلمة جداً.

فنظرت إلى عينيه وضحكت ضحكةً منغمسة بالدموع: لا أريدُ أن أبقى في هذه القرية، فكلّ شيءٍ فيها أصبحَ يخنقني ويؤلمني، لم أعد أرى فيها سوى حطام لأحلامي.

علي: لا بأس كل شيء من الممكن أن يبنى.

وضع يديه على زنديها، ونظر إلى عينيها ثم أكمل قائلاً: فقط كوني قوية.

يارا: أريد أن أذهب وأبقى عند عمتي في المدينة.

علي: حسناً بعدَ قليل سأعودُ أنا وخالد إلى المدينة هيئي نفسكِ لنأخُذكِ معنا.

مسحت دموعها وردت بصوتٍ مبحوحٍ مختنق قائلة: حسناً اخرج الآن واجلس مع عائلتي ريثما أهيئُ نفسي.

***

خرجَ علي وعادَ إلى غُرفةِ جورج، استقبله جورج بسؤاله: هل علمت ما بها؟.

علي: نعم لقد تركها خطيبها وأخبرها أنه سيتزوج.

ميرال: يتزوج؟؟؟؟!!!!!.

وضعت الأم كفها على خدها بحسرة: يا إلهي.. ابنتي المسكينة، كم حظها قليل!.

لم يغضب جورج من راني لأنهُ كانَ يعلمُ أن خروجهُ من هُناك هو أشبهُ بالمستحيل، لكنهُ حزنَ على شقيقتهِ التي فاقَ عذابها عُمرها الشاب بكثير وعلى أحلامها الفتية التي انهدمت،فكر بائساً في صديقِ طفولتهِ الذي كتبَ لهُ القدرُ حياةً لم يكُن يتمناها قَط وحكم عليه السجن في سراديب العذاب، ثم نظر إلى علي قائلاً: كيف حالها الآن؟.

علي: تحزم أمتعتها. قالت لي أنها ستذهب للبقاء عند عمتها في المدينة فإنها لم تعد تطيق البقاء هنا.

جورج: من الأفضل لها الذهاب ستكون أفضل حالاً هناك.

***

بدلت يارا ملابسها ووضعت بعض المستلزمات والأدوية المُهدئة في حقيبةٍ صغيرةٍ،قبلَ خروجها من غُرفتها أمسكت بهاتفها النقال محاولة الاتصالَ براني لعلهُ يجيبها ويخبرها أنها قد كانت تحلمُ، وأنهُ لن يكونَ لغيرها، لكنَ رقمهُ كان خارجَ نطاقِ التغطية فوضعت الهاتفَ في جيبها ثم خرجت مودعةً، أخذت والدتُها تبكي عندَ مغادرتها المنزل لكن جورج أخذَ يهونُ عليها مُخبراً إياها بأن هذا سيكونُ أفضل لها.

***

في الحافلة جلس علي في المقعدِ المجاورِ ليارا بينَما جلس خالد في المقعدِ الذي كانَ خلفهما إلى جانبِ رجلٍ عجوز.

كانت تنظرُ عبرَ النافذة إلى قريتهاِ التي كانت بالنسبةِ إليها جنة قضت فيها أجملَ اللحظات، أما الآن فتحولت إلى كابوسٍ من الذكريات،ذهبت آمالها الجميلة ولم تترك لها سوى الخيبة والخذلان،ما يزيد ألمها هو صوت فيروز حيث كانت تردد في أغنيتها (وشو قالوا يا عمر حلو وما دقتك)، أسندت رأسها إلى الكرسي لتنام لعلها ترتاح قليلاً من إرهاق الليلة الماضية، وعندما غطت في النوم أسندت رأسها من دون قصد إلى كتف علي.

***

وصلَ راني مع الرجالِ إلى القريةِ المقصودة وتم إعدادهم لمواجهةِ قواتِ الجيشِ التي كانت تحاولُ استعادتها؛ بدأَ الرجالُ المُسلحون يصدونَ الهجومَ متضامنينَ بعضهم مع بعض، أما راني فكانَ يتظاهرُ بأنهُ يقاتلُ معهم لكنهُ كانَ يتقصدُ إطلاقَ الرصاصات النارية من بُندقيتهِ إلى الأماكنِ الخالية من رجالِ الجيش كي لا تصيبَ أحداً.

***

وصلَت الحافلة إلى المدينة؛ نزلَ خالد عندَ حاجزِ الجيشِ حيث يخدم، أيقظ علي يارا بلطف فأبعدت رأسها عن كتفه قائلة: أعتذر لم أنتبه لنفسي.

علي: لم أنزعج، أين يقع منزل عمتكِ، لقد وصلنا.

نظرت من النافذة ثم قالت: إلى الأمام قليلاً.

لم يسمح لها أن تذهب إلى المنزلِ قبلَ أن تذهبَ معهُ لتناولِ الغداء وألحَّ عليها في الطلبِ حتى وافقت.

فذهبا إلى مطعم قريبٍ من منزلِ عمتها،تناولت القليل من الطعام على الرغم من عدم رغبتها كي لا يغضب منها، بعد أن انتهيا أوصلها إلى أمامِ بابِ المنزلِ، شكرته قبل دخولها: شكراً لك لقد عذبتك بمشاكلي.

علي: أحب هذا النوع من العذاب عذّبيني دائماً، إنني أخدم على الحاجز في الحارة التالية آمل أن أراك يومياً.

يارا: إن رغبت في الخروج سوف أكلمك.

علي: وإن لم ترغبي، سأجلس أمام المنزل كي تخرجي.

يارا: حسناً، أراك لاحقاً.

دخلت المنزل بينما عادَ أدراجهُ نحوَ الحاجزِ، بدل ملابسهُ وارتدى زيهُ العسكري ووقفَ على الطريقِ الرئيسي يتفحّص البطاقات الشخصية ويفتش السيارات.

***

جلست يارا تتحدثُ مع عمتها التي رحبت بها ترحيباً حاراً وبدأت تقصّ عليها كل ما جرى معها، كانت تعيشُ مع طفلها الصغير طوني ذي البضعةِ أعوام، أما زوجها فهو مُسافرٌ خارجَ البلادِ للعمل.

قالت العمة: كم أرغب في رؤية جورج، سوف أذهب في نهاية هذا الأسبوع لزيارته.

يارا: حسناً، وأنا سأعتني بطوني إن لم ترغبي في أخذه معك، فأنا لا أرغب في العودة إلى هناك.

***

أُسعفَ راني في أحد المستشفيات الميدانية في القرية التي نُقلَ إليها حيثُ كانَ أحدُ الأطباءِ يستأصلُ لهُ إحدى الرصاصاتِ التي أصيبَ بها في ذراعهِ.

استطاعَ المسلحون صدّ الهجومَ على تلكَ القرية، أخذَ القائدُ يطمئنُ إلى حالِ المُصابين في المشفى، وطلبَ من أحدِ رجالهِ أن

يزوجَ ابنتهُ لراني مكافأةً لهُ لتعتني بهِ ريثما يعودُ إلى صحتهِ من جديد ويتابعُ مسيرةَ القتال، وأخذَ يُهنئُ رجالهُ بالنصرِ.

***

مرت الأيامُ، كانت يارا تخرجُ كل مساء لترى علي الذي يحاولُ التخفيفَ عنها ويتعلقُ بها كُلَّ يوم أكثرَ فأكثر، تمضي وقتها في أي شيء لتتجاهل التفكير وألم فؤادها الذي لو حررته لقتلها، تأخذ قبل النوم حبة مهدئة لتقاوم الأرق، فقد أصبح راني بالنسبة إليها ذاك الطيف الذي يتوسد أحلامها، يترقب سكونها ليأتي متبختراً متعلاً قلبها مرتدياً ثوب كلماتها الذي زاده ثقة، يعلم أن عينيها لم تشاهدا في دنيا الهوى من قبله ولا من بعده أحداً فيسلك طريقهما ليختلس النظر مبتهجاً إلى نفسه داخلهما، يصد نداءها الملهوف مبتسماً ويعود، يعود بخطواته متراقصاً على وقع أنغام تكسرها منتعشاً يسقي نقصه بمطر عينيها، لم تعلم أن راني كان يتمنى الموت ألف مرة قبل أن يخدش قلبها، وأنه في المعركة الأخيرة ألقى بنفسه بين الرصاص لكن الله لم يرد له أن يموت.

***

زوج القائدُ راني بابنة أحدِ المقاتلين وأعطاهُ منزلاً لإحدى العائلاتِ التي كانت قد هجرت القرية، وكان يسعى بهذا لربط

مقاتليه الغرباء أكثر بالقتال والتحكم فيهم بتزويجهم بنساء من القرى الخاضعة لسيطرتهم.

كانت زوجةُ راني فتاةً فاتنةً اسمها رهام في السابعة عشرة من العمر، تعتني بهِ وتعد لهُ الطعام لكنهُ لم يكن يطيقُ النظرَ إليها، كانَ يعاملها بقسوةٍ كأنهُ يريدُ أن يثأرَ من خلالها من أمثالِ والدها ورجالهِ الذين سلبوا منهُ أجملَ ما يملك، لم يسبق لرهام أن أحبت أو تعاملت مع رجل، كانت طفلة جاهلة في شؤون الرجال وهذا ما جعلها ترى في راني الوسامة والرجولة على الرغم من معاملته الفظة.

في أحدِ الأيامِ بينما كانَ شارداً يفكرُ في يارا ويتساءلُ عن حالها من بعده، أحضرت له كأساً من العصير وجلست في جوارهِ على السرير، قدمتها لهُ فأمسكها منها بقوة ورماها أرضاً حتى تحطمَت بالكامل وصرخَ قائلاً: لا أريدُ منكِ شيئاً.

انهمرت الدموعُ على خديها وانتفض قلبها خوفاً وقالت: لماذا تكرهني هكذا؟.

خرجت وجلست في الغُرفةِ المجاورة لغرفتهِ وأخذت تبكي، رق قلب راني، فقد أساء معاملتها كثيراً منذ تزوجها وأحسَّ بالذنب، فذهبَ إليها وجلسَ إلى جانبها قائلاً: آسف، اعذريني.

لم تجبهُ واستمرت في البُكاء، فوضع يدهُ على شعرها بلطف قائلاً: لا تحزني لن أكرر هذا.

فنظرت إليهِ والدموعُ تتساقطُ من عينيها كأمطارٍ غزيرةٍ: لماذا تفعلُ هذا بي، ما الذي فعلتهُ لكَ؟.

عانقها، فقد أثرت دموعها في قلبهِ الرقيقِ قائلاً: أعدُكِ أن يكونَ تعاملي أفضلَ معكِ من الآنَ وصاعداً.

مع مرورِ الأيامِ أصبحَ يعاملها برفقٍ كما يعاملُ الزوجَ زوجتهُ بسبب اقتناعه أن هذا قدره، وأنه سيموت في وطنه غريباً بعد أن قتلت الظروف أحلامه، لكن قلبهُ لم يتحرر من حب يارا التي كانت تشغلُ فكرهُ دوماً وعقلهُ بقي شارداً حبيسَ ذكرياتهِ معها.

***

كان علي لطيفاً مع يارا يحاولُ دوماً ممازحتها ورسم الابتسامةِ على وجهها الحزينِ الذي أذبلتهُ الأدوية والمُهدئات.

في أحدِ الأيام بينما كانا يسيران ليلاً بالقربِ من منزلِ عمتها أمسكَ يدها وقبلها فارتبكت هيَ وسحبتها بسُرعة فنظرَ إلى عينيها قائلاً: أريدُ أن أُخبركِ شيئاً لكن لا تصفعيني... اتفقنا.

ضحكت وقد احمرت خجلاً قائلة: أعدُكَ.

علي: أنا أُحبُّكِ.

تسارعت دقاتُ قلبِ يارا، فهي لم تسمع هذه الكلمة منذُ مُدةٍ طويلة، لم تعرف بماذا تُجيب، تجنبت النظرَ إليه من شدةِ خجلها، فأكملَ كلامهُ قائلاً: وأريدُكِ أن تكوني شريكةَ حياتي إن لم تمانعي، لا أريدُ سماعَ إجابتكِ الآن فكري كثيراً قبلَ الإجابة، وبشأن موضوعِ اختلافِ الدينِ بيننا فأنا ليسَ لدي مُشكلة بشأنِه.

ردت يارا مُرتبكة: يجبُ أن أعودَ إلى المنزل الآن.

علي: هل غضبتِ مني؟.

يارا: لا.. لكن أريدُ العودة.

علي: حسناً سأوصلُكِ، لكن أرجوكِ فكري في ما قلتهُ جيداً.

يارا:أنا لا أستطيع أن أوافق.

علي: لماذا؟.

يارا: لو قلنا إن الموافقة متعلقة بموافقتي فقط.... أنت تعلم كل شيء عني.

علي: أين الخطأ في كوني أعلم.

يارا: لقد كسر الحب قلبي، لا أظنني قادرة على أن أمنحك ما تستحق من المشاعر.

علي: لا بأس، سأحاول بناءه من جديد.

يارا: وإن فشلت؟؟؟؟.

علي: سأتحمل نتيجة فشلي إذاً.

***

دخلت يارا إلى المنزل حيث كان العشاء جاهزاً، العمة: إننا ننتظرك لنأكل معاً، لماذا لا تجيبين على اتصالاتي.

يارا: آسفة عمتي نسيت هاتفي النقال هنا.

العمة: هيّا اجلسي حول المائدة.

يارا: سأبدل ملابسي أولاً.

جلست حول المائدة بعد أن بدلت ملابسها وغسلت يديها

ووجهها شـاردة الفكرِ هادئة، كما يحدث للمرء عندما يغرق في الفوض الروحية في ذاك القاع العميق من نفسه خلف تلك الابتسامات المصطنعة والهدوء المسيطر حيث يكون في حالة الأنا واللا أنا، فمن جوف ازدحامه يكون هو السجين الذي يمزقه الانتظار ليرى ما بعد فوضاه تائقاً إلى حرية استقراره، ومن ظاهره يكون اللا أنا الذي يرسم ضحكاته التي يتسلل الألم بينها متخفياً ليجعلها ستائر يخفي بها ذاك القاع وصدىً يمتص ضجيجه؛ فتفكيرها في كلامِ علي وقلبها مع راني، أخذت العمة تسألُها عن الشيء الذي يشغلها لكن يارا لم تُخبرُها بشيء، اكتفت ترد بابتسامات لتريها أنها على ما يرام.

عند الانتهاء أدخلت يارا الصغيرَ طوني إلى غُرفتهِ وأخذت تروي لهُ القصصَ حتى غفت عيناه، ثُمَّ أخذت تحاولُ النوم، فهيَ تنامُ يومياً في غرفةِ الصغيرِ على سريرهِ لكنها لم تستطع، أخرجت هاتفها النقالَ من جيبها وحاولت الاتصالَ براني لكنَ الرقم كانَ في مرحلةِ الانقطاع، علمت حينذاك أن المُشكلة لم تكن هيَ سوءُ شبكةِ الاتصال بل إن راني قد كسرَ شريحةَ هاتفهِ، فهمّت بالبكاءِ، كانت ككانون بروحها المتجمدة وقلبها الضبابي الذي كان ضبابه يجعلها تتيه فلا تدري بأي درب تسير، أهو درب النسيان أم درب العودة إليه؟

كيف كان لها أن تبتلع دموعها الحارة التي تحرق خديها وكأنها شعاع من شمس آب؟ فلو ابتلعتها لأعدمت نفسها قهراً.

حاولت كثيراً أن تخفي ذبولها بضحكات بائسة لكنها لم تستطع، فلا يمكن إخفاء ذبول الأزهار حين يحين الخريف.

***

وفي صباحِ اليومِ التالي طُرقَ بابُ منزلِ العمة بينما كانت جالسةً وحدها في الشُرفة تشربُ القهوة ويارا والطفلِ مازالا نائمين، ففتحت الباب لتجدَ أن أُمّ جورج وجورج وأمل وميرال قد جاؤوا لزيارتها ورؤيةِ يارا.

رحبت بالجميع وقامَ جورج بتعريفِ عمتهِ إلى أمل ثُمَّ جلسوا في الصالةِ يتحدثون، جالت أم جورج بعينيها في الصالة ثم نظرت إلى العمة قائلة: أين يارا؟.

العمة: في غرفة طوني مازالا نائمين.

أم جورج: سأدخل لإيقاظها، اشتقت إليها وإلى طوني.

العمة: تفضلي.

دخلت وجلست على طرفِ السريرِ في جوارها تنظرُ إليها وهيَ نائمةٌ على جانبها الأيمن تحضنُ بيدها اليُسرى طونيِ،أخذت الأُمُ تمسحُ على شعرِ ابنتها بلُطف حزينةً على ما حلَّ بها، فتحت يارا عينيها واستدارت خلفها لتجدَ والدتها فنهضت مُسرعةً وأخذت تحضُنها وتقبلُها قائلة: اشتقتُ إليك يا أمي.

ردت الأُمُ حزينة: لو اشتقتِ إليّ حقاً لأتيتِ لرؤيتي.

يارا: أرجوكِ يا أمي لا تحزني بسببي لكن كل شيءٍ في قريتنا يجعلني تعيسة.

ترقرقت الدموعُ في عينيها وتابعت قائلة: أينما ذهبت أتذكر راني، كل شيءٍ هُناك يوجعُ قلبي.

ردت الأمُ قائلة: لا عليكِ يا ابنتي ما يُهمني هو راحتُكِ، وهيا لنخرُج الآن قبلَ إيقاظِ الطفل، فالجميعُ في الخارجِ ينتظرُكِ.

غمرَ الفرحُ قلبَ يارا وردت مُتلهفة: حقاً!!! وهل استطاعَ جورج المجيء.

ردت الأم مبتسمة:نعم لقد جئنا في سيارةِ قائدِ اللجانِ الشعبية في قريتنا فلم يسأل أحدٌ على الحواجزِ عن بطاقة جورج الشخصية وسنعودُ معهُ أيضاً.

***

ألقت يارا التحيةَ عليهم وأخذت تعانقُهم بحرارة ثُمَّ وضعت يدها بلطف على بطنِ أمل قائلة: كيفَ حالُكَ؟هل اشتقتَ إلى عمتكَ أنتَ أيضاً؟.

ودخلت بعد ذلك مع عمتها إلى المطبخ لإعداد الفطور ثم جلسوا جميعاً يتناولونَ الطعام، كانت يارا وميرال تتهامسانِ

يارا: لقد طلب علي الزواج بي.

ميرال: حقاً!!!... و خالد طلب مني أن أخبر والدتي ليتقدم لخطبتي.... لكن علي مسلم.

يارا: مبارك حبيبتي، هذا خبر يسعدني وسط كل هذه الحياة

التعيسة... سأخبر جورج بشأن علي بعد قليل أرجو أن يكون الأمر موفقاً.

***

بعد انتهائهم من تناول الطعام اقتربت يارا من جورج وهمست له: اتبعني.

دخلت إلى إحدى الغرف وتبعها، نظرت إليه مرتبكة فقال لها: حبيبتي ما بكِ؟.

يارا: طلب علي الزواج بي... ما رأيك؟.

رد مستغرباً وقد تسارعت ضربات قلبه غضباً: وأنتِ هل ترغبينَ في الموافقة؟.

ردت يارا بحزم وكانت قد حسمت قرارها: نعم.

جورج: هل ستهدمين مُستقبلكِ من أجلِ أن تنسي راني..... لا تحل الأمور هكذا، إنَ علياً ليسَ من ديننا لا تستطيعين الزواج به.

يارا: لن أهدمَ مُستقبلي، فهوَ يُحبني وأمل ليست من ديننا أيضاً لكنكَ سعيدٌ معها.

جورج: هو يحبك وهل أنت تحبينه؟.

يارا: أشعر بأنه لطيف يحاول دوماً أن يخفف عني.

جورج: وإن عاد راني يوماً؟؟؟؟.

يارا: هل تريدني أن أحترق قهراً وأنا أنظر إلى زوجته وأطفاله

حين يعود.... إنني أختنق كلما فكرت في هذا... أريد الابتعاد عن كل شيء.

اقترب منها جورج وحدق إلى عينيها بحزم: أنا آسف لا أستطيع الموافقة على زواج كهذا.

رفعت يارا صوتها وزاد انفعالها: بلى تستطيع، وإن كان مسلماً، عمتي ديانا تزوجت مسلماً.

جورج: يكفي يارا، لقد ألحقت عمتك العار بعائلتنا عندما هربت من منزل جدي وتزوجته رغماً عن الجميع.

يارا: سأفعل كما فعلت إن لم توافق.

رفع يده بكل ما يستطيع وصفعها فانطرحت أرضاً، نظرت إليه مذهولة بتلك النظرات المثقلة بالدموع وقالت: حتى أنت يا أخي، حتى أنت يا جورج... اطمئن لن ألحق العار بعائلتنا من جديد كما سبق لراني وقتلني من الداخل سأقتل جسدي لأموت موتاً كاملاً.

لم يستطع النظر إليها ضم أصابع يده نادماً ثم اقترب منها لينهضها بينما لم تعد هي تستطيع مقاومة براكين الدموع الحارة التي ثارت في عينيها، فتحت والدتهما الباب بعد أن سمعت صوتهما وهي في طريقها إلى المطبخ مارة من أمام الغرفة الموجودين فيها وهي تقول: ماذا حدث؟ لماذا علت أصواتكما إلى الخارج؟.

نظرت إلى يارا وجورج الذي كان يمسكها من زندها لتنهض لكنها أبعدت يده عنها رافضة، قالت بلهفة وهي تقترب من ابنتها: ما بها يارا يا جورج؟.

لم يعلم جورج بما يجيب فقال بنبرة حزينة: أنا آسف لم أقصد.

ثم خرج من الغرفة، بينما أخذت الأم تضم ابنتها الباكية كطفلة صغيرة إلى صدرها: لا بأس يا حبيبتي..... لكن ما الذي حدث حتى فعل هذا وهو يحبك أكثر من نفسه.

أخذت تصرخ ودموعها تملأ خديها «لماذا لا أحد يشعر بي يا أمي.... ما ذنبي حتى أذوق الأمرين... على ماذا أعاقب لأعيش بهذه الجحيم».

كانت الأم تمسح على ظهر ابنتها بلطف وقلبها يغص حزناً عليها مرددة «اهدئي يا ماما سأوبخ جورج على فعلته... اهدئي يا حبيبتي».

***

خرج جورج عاقد الحاجبين إلى الصالة حيث كان الجميع يتبادلون الأحاديث ويشاهدون التلفاز، كانت ملامح الغضب والندم واضحة على وجهه، دخلت ميرال إلى حيث تجلس يارا ووالدتها لتعلم نتيجة نقاشهما بعد أن رأت حال جورج الذي جلس على الأريكة وتنهد بعمق، نظرت إليه أمل قائلة: حبيبي ما بك؟.

قاطعت العمة إجابته قائلة: أين يارا ووالدتك ألا تريدان الجلوس معنا.

رد بنبرة متعبة: أنا بخير، إنهما في الداخل ستأتيان بعد قليل.

أخذ يحدث نفسه شارداً «يا إلهي ماذا فعلت!... إنها شقيقتي

التوأم كنت دوماً حنوناً عليها في أسعد حالاتها، كيف عاملتها بكل تلك القسوة وأنا أعلم كم هي محطمة، أعلم أن كل لحظة فرح كانت تنتظرها خذلتها حتى أنا الآن خذلتها على الرغم من أنني كنت دوماً أتعامل معها كصديق قبل أن أكون أخاً..... آه رأسي يكاد ينفجر».

***

خرجت الأم برفقة ميرال إلى الصالة، كانت الأم تنظر إلى جورج نظرات حزينة معاتبة، قالت ميرال بصوت مرتفع: استعدوا ستأتي السيارة بعد قليل لأخذنا إلى القرية.

العمة: ابقوا مدة أطول ما هذه الزيارة القصيرة!!!!!.

أم جورج: بودنا، لكن جارنا سيأتي بعد قليل لأن جورج ليس معه بطاقة تثبت شخصيته من أجل الحواجز العسكرية، وجارنا يعرفهم جميعاً لم يطلبوا بطاقاتنا الشخصية.

أمل: أين يارا ألن نراها قبل أن نذهب؟؟؟.

ميرال: إنها متعبة، استلقت لتنام في غرفة طوني.

العمة: هل يؤلمها شيء؟.

أم جورج: متوهنة قليلاً اعتني بها جيداً يا حبيبتي، فابنتي هذه تعيسة حظ.

اقترب جورج من ميرال وقال بصوت حزين خافت:كيف حال يارا؟.

ميرال: لقد بكت حتى أُجهدت من البكاء... تركناها لتنام لعلها ترتاح قليلاً.

جورج: ابقي هنا لا تذهبي معنا.... اعتني بها ولا تدعيها وحدها، أخشى أن تؤذي نفسها.

ردت ميرال معاتبة: أخي لماذا فعلت هذا ألا يكفيها حزنها؟.

جورج: لا أدري فقدت أعصابي.

نظر جورج إلى عمته مخاطباً: عمتي سنترك ميرال عندك ستعتني بيارا وطوني أثناء عملك.

العمة: المنزل منزلها، أتمنى لو تبقوا جميعكم عندي يا أحبائي.

غمر الفرح قلب ميرال لأنها تتوق شوقاً لرؤية خالد وللتجوال في شوارع حمص التي لم تكن الحركة فيها والازدحام كسابق عهدها قبل الحرب لكنها ما زالت جميلة كفاتنة تساقط شعرها بسبب السرطان فلم ينقص هذا من جمال وجهها شيئاً.

***

كانت يارا مستلقية على السرير تكتم بكلتا يديها صراخ قلبها المذبوح ألماً، ما كان يزيدها اختناقاً هو تفكيرها أن راني لم يتصل حتى اتصالاً ليطمئن إلى حالها بعد كل الدمار الذي خلفه داخلها وهو يعلم أنها لو طلب منها أن تنتظره دهراً لانتظرت، تركها لا تدري ماذا تفعل لتنسى كجريح ينزف بعمق فتغلق له كل المستشفيات أبوابها، أليس شيئاً قاتلاً أن تنتهي قصة حب عظيمة بهذه البساطة، ألهذا الحد هانت عليه.... بعد أن وصلت فرحتها إلى حدود السماء السابعة بكونه حياً يقول لها: لن أعود... سأتزوج.

ليقتلها ألف مرة، آلاف الأفكار كانت تزدحم في دماغها لتزيد قلبها حزناً. حين طُرقَ الباب بلطف، تمالكت نفسها ومسحت دموعها متظاهرةً بالنوم، دخل جورج على الرغم من أنه لم يأخذ إذناً بالدخول، جلس في جوارها قائلاً: أعلم أنكِ لا ترغبين في رؤيتي أو حتى محادثتي، وأعلم أيضاً أني أحبكِ كثيراً... لم أقصد ما فعلت أنا متأسف أرجو أن تسامحيني.

طبع قبلة رقيقة على جبينها دون أن تنطق بكلمة وخرج من الغرفة يائساً.

***

بعد مغادرتهم دخلت ميرال إلى غرفة يارا، أخذت تنقر على كتفها بينما هي مستلقية ومغمضة عينيها: يارا... أعلم أنكِ مستيقظة.. هيا انهضي.

فتحت يارا عينيها ونهضت قائلة بصوتها المبحوح: ألم تغادروا مازلتم هنا؟.

ميرال: لقد أبقاني جورج هنا لأعتني بك... إنه يحبكِ أكثر مني، أشعر أنه سيوافق على زواجك من علي وسترين كيف أن حدسي لا يُخطئ.

يارا: لم أعد أرغب في أي شيء.

ميرال: أختي حبيبتي لا تقولي هذا... ألا تحبينني؟.

يارا: بالطبع أحبكِ.

ميرال: إذاً أثبتي لي هذا، ودعينا نذهب لمقابلة علي وخالد في المساء ستتحسن حالتكِ النفسية.

يارا: ميرال أيتها الشقية انظري إلى وجهي كم هو متعب، اذهبي أنتِ وقابلي خالد ليس من الضروري أن أكون معكِ.

أمسكت ميرال بيدي يارا وضغطت عليهما متوسلة: أرجوكِ أختي، لم آتِ إلى حمص منذ مدة، دعينا نسهر سهرة جميلة تكونين معي فيها.

يارا: حسناً لا يمكن أن أرفضَ لكِ طلباً تستغلين دوماً حبي لكِ.

ابتهجت ميرال فرحاً وقالت بحماسة: اتصلي بعلي، قولي له إنكِ ستقابلينه وأخبريه أن يحضر خالد بحجة أنك تريدين أن تسأليه بعض الأسئلة حول موضوع خطبتهِ لي، لا تخبريه أني قادمة معكِ أريد أن أفاجئ خالد بهذا.

كانت يارا تنظر إليها مستغربة ثم قالت: لقد خططتِ لكل شيء!!!.

***

فور وصولهم إلى المنزل خاطبت أم جورج ابنها معاتبة بينما كانت أمل تنصت إلى الحديث: كيف تضرب شقيقتك؟... هل هكذا ربيتُكَ أنا ووالدك.

جورج: أمي أرجوكِ أنا حقاً آسف، لم أتمالك أعصابي كانت مصرة على الزواج من علي.

أم جورج: مهما فعلت لم يكن من المفترض أن تفعل هذا، أنت تعلم ما تعانيه.

أمل: وما المشكلة إن تزوجت علي؟ هل المشكلة أنهُ مسلم مثلي؟.

لم يعرف جورج ما يجيب فقال: أرجوكِ حبيبتي لا تتدخلي بهذا الأمر.

دخلت أمل غاضبة إلى غُرفتها.

مسح وجهه بكلتا يديه وأكمل قائلاً: لقد هددتني أن تؤذي نفسها... أنا خائف عليها.

ارتعش قلب الأم ذعراً: يا إلهي... لماذا لم تخبرني عندما كنا هناك، كنت أحضرتها إلى هنا وأبقيتها تحت ناظري.... ماذا سنفعل الآن.

جورج: إن قبلنا ستخرج عن ديننا سنصبح حديث القرية سيقتلوننا بنظراتهم، ستتغير كل معاملتهم معنا.

أم جورج: اسمع يا جورج، أنت متزوج من أمل وسعيد معها لا تكن أنانياً، لست مستعدة لأن أخسر أي واحد منكم من أجل كلام أهل القرية حتى لو سلبوا روحي مني، أهل القرية سينسون بعد فترة لكن يارا إن حدث لها مكروه فلن أنسى هذا ما حييت، ولن أسامح

نفسي ولا أسامحكَ حينذاك، إن كانت ترى سعادتها مع علي فلن أقف في طريقها.

رد جورج بحسرة: لا أصدق حتى الآن أننا نتناقش في هذا الأمر وأن راني لم يعد في حياتنا.

ترقرقت الدموع في عيني أم جورج: جربت أن تكون مكانها ولو لمرة، ما زلت تفكر في راني!.. أين راني الآن يا جورج؟ هل فكرت أنت أو هو في ما حدث لابنتي حين جاء خبر استشهادكما. لو شعرت بها لما قسوت عليها، لوافقت على أي شيء من الممكن أن يسعدها. لو شعر هو بها لما تركها تذبل هكذا، كنت أسمع صوت بكائها كل ليلة ثم تستقبل الصباح بابتسامة متعبة لتخفي بؤسها. كانت تحدث صوركم وثيابكم، تجلس في غرفتكَ ساعات تنام على وسادتك تشم رائحتك فيها، تقف على نافذة غرفتها دون أن تمل النظر إلى نافذة غرفة راني، ضاع كل شيء منها ولم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً لأفرحها، هل ستكون سعيداً إن آذت نفسها، هل سيفيدك تفكيرك ويعوضك أهل القرية الذين تخشاهم عنها.

مسح جورج دموعاً سقطت من عينيه: أمي يكفي أرجوكِ كلامكِ يعذبني، وأنا لن أقف في طريقها، إنها نصفي الآخر، لم أقصد أن أمد يدي عليها.

أمسك هاتفه واتصل بميرال التي كانت تجلس مع سارة وعمتها وابنها في الصالة

جورج: مرحباً ميرال كيف حالك؟.

ميرال:أهلاً جورج بخير.

جورج: دعيني أحدث يارا.

أشارت ميرال إلى يارا بأن جورج يريد أن يحدثها، فأشارت إليها بأن تخبره أنها نائمة، بينما كانت العمة تنظر باستغراب ما يحدث، ردت ميرال مرتبكة: إنها نائمة.

جورج: أعلم أنها لا تريد التحدث، أعطيها الجوال لتحدثني.

ميرال: حسناً أخي، انتظر لحظة.

أخذت تهمس في أذن يارا: إنه مصرّ أن يكلمك، هيّا كلميه.

أمسكت يارا الجوال بتردد قائلة بصوتها الوهن: أهلاً جورج.

جورج: أعلم أنكِ لا تزالين غاضبة مني، هل تعلمين كم أحبك!!!... لن أحول بينكِ وبين راحتكِ يوماً، فكري جيداً في الأمر وإن كنتِ حقاً مقتنعة وستكونين سعيدة مع علي أخبريه بأنني موافق لكن لا تتسرعي.

انتعش قلب يارا بكلمات شقيقها فردت: وأنا أحبكَ كثيراً يا جورج.

جورج: قولي لي إنكِ سامحتني.

يارا: ليس بوسعي أن لا أسامحك.

كانت ميرال والعمة ينصتان إلى الحديث وحين انتهت المكالمة، قالت العمة: ما الذي يحدث، أنا لا أفهم شيئاً.

يارا: لقد وافق.

اندفعت ميرال وعانقت يارا بقوة وهي تقول: قلت لك إن حدسي لا يخطئ.....مبارك يا أختي.

العمة: ماذا حدث؟.

أخذت يارا تخبر عمتها بما جرى، لم تكن العمة سعيدة بما تقوله لكن ليس بوسعها الاعتراض بعد موافقة شقيقها ووالدتها وإصرارها.

***

خرجت العمة مع ابنها إلى منزل جارتها لتشرب القهوة معها، بينما اتصلت يارا بعلي الذي كان يتابع مناوبته، فأشار إلى أحد أصدقائه بأن يتسلّم مكانه ريثما يتحدث على الهاتف، رد متلهفاً: أهلا يارا كيف حالكِ؟.

يارا: بخير، أريد أن أرى خالد اليوم من أجل الحديث ببعض التفاصيل بشأن خطبته مع ميرال... إذا كان لديك الوقت تعال معه.

قال مرتبكاً: وماذا بشأننا؟.

يارا: سنتحدث عندما أراك... في أي وقت تستطيع المجيء أنت وخالد؟

علي: ساعة ونصف الساعة تقريباً ريثما أنهي عملي، سأوقظ خالد ونهيئ أنفسنا.

يارا: سأراك في المقهى نفسه الذي نجلس فيه عادةً.

علي: حسناً لن نتأخر... آمل أن يكون وراء تأخير الإجابة خبر مفرح.

أغلقت المكالمة وقالت لميرال: لم أخبره أنكِ ستأتين معي كما طلبتِ.

ميرال: هل تحبين علياً؟.

هذا السؤال جاءها كضربة قوية، فمهما استلطفته أو حتى أحبته فلن تمنحه سوى القليل بعد أن استهلكت قوت قلبها ومعظم روحها في حب راني، لن يكون لعلي منها سوى بقايا من حطام، أرادت أن يبني منه ما استطاع بمشاعره، تنهدت بعمق ثم أجابت: أستلطفه، وربما سأحبه يوماً.

رن هاتفها لتقطع شرودها رسالة من علي كتب فيها: «كوني لي كروح هجرت أرض هؤلاء البشر وخلدت في سماء حبي، لا تبتعدي مهما حاول الماضي إبعادك فنجوم قلبي ستنطفئ لو ابتعدتِ عني يوماً، كوني لي كياناً أكن لك ظلاً متشبثاً مرافقاً لا يتمكنون من إنكاري حتى لو طمروني تحت التراب لنفيي عنكِ، ارتدي قلبي في حزنكِ فسيفرحك وحدثيه في وحدتكِ فسيؤنسكِ، انتعليه في طرقاتك الشائكة وسيحميك».

كانت تقرأ وتبتسم

ميرال: ماذا فعلتِ حتى أحبكِ هكذا.

ضحكت قائلة: صفعته بقوة.

***

كان علي وخالد جالسين في المقهى ينتظران قدوم يارا.

خالد: لدي سؤال لكن لا تغضب مني.

علي: تحدث لن أغضب.

خالد: تعلم كم تحب يارا خطيبها السابق، ألا تخشى أن يكون زواجكما متسرعاً إن وافقت.

علي: يكفي أنني أحببتها، شعور غريب تملكني منذ رأيتها لأول مرة.

ضحك خالد: هذا مصير من يعلق قلوب الفتيات بوسامته ثم يتخلص منهن... حين يحب سوف يذوق ما أذاقهن.

علي: كفاك سخرية يا رجل.

قدمت يارا، ابتهجَ قلبُ خالد عندما رأى أن ميرال قادمة معها، جلسَ الجميعُ حول طاولةٍ واحدة، كانت الأغاني الهادئة الرومنسية تملأ المكان،أرسل علي رسالةً عبرَ الهاتفِ النقال مكتوبٌ فيها «اجلس مع ميرال إلى طاولة وحدكما واتركانا وحدنا».

لم ينتبه خالد إلى رنينِ هاتفهِ مشغولاً بالنظر إلى ميرال التي كانت جالسةً أمامهُ، همسَ علي في أذنهِ قائلاً: انظر إلى هاتفكَ النقال أيها الغبي.

أمسكَ الهاتف وقرأَ الرسالةَ مُبتسماً ثُمَّ نظرَ إلى يارا قائلاً: هل تسمحينَ لنا أنا وميرال أن نجلسَ إلى طاولةٍ وحدنا.

ابتسمت يارا: بالطبع.

غادر خالد وميرال الطاولة وجلسا إلى أخرى، نظرَ علي إلى

يارا بعد أن أصبحا وحيدين وقالَ مُرتبكاً: ألم تقرري بشأنِ موضوعِ البارحة؟.

خفضت يارا رأسها خجلاً: أنا موافقة.

رفعَ علي بذراعهِ وجهَ يارا ونظرَ إلى عينيها وقالَ بلهفةٍ: حقاً.

يارا: نعم.

علي: هل أخبرتِ أهلكِ؟.

يارا: اعترضوا في البداية لكنهم وافقوا.

علي: سأسافر غداً إلى قريتي في حماة لأحدث والدتي، وفي اليوم التالي سنزوركم في منزلكم من أجل أن أطلب الزواج بشكل رسمي.... ما رأيك؟.

يارا: إذا كان هذا مناسباً لعملك موافقة.

علي: سوف أستأجر منزلاً لكِ بالقرب من عملي لكي تبقي قريبة مني.

يارا: أرغب في العودة إلى كليتي لأكمل الدراسة.

علي: لا يوجد مشكلة، ستكون الجامعة قريبة من منزلنا.

كان علي مندفعاً أكثر منها، لم يكن شاباً يرغب في الزواج والاستقرار قبل معرفتها، لكن هذا هو الحب يغير فينا إيجاباً مرةً وسلباً أخرى، يجعلنا أحياناً غرباء عن أنفسنا نفعل أشياء لم نتوقع أن نفعلها يوماً.

***

في اليومِ التالي صباحاً ذهبت ميرال إلى منزلِ عائلة خالد وقامَ بتقديمها إلى والديهِ اللذين كانا يسكنان وحدهُما بعدَ زواجِ جميعِ أبنائهما إلا خالد، فهوَ كانَ أصغرَهم، أُعجبَ الوالدان بميرال ورحبا بها ترحيباً لائقاً وجلسا يُحدثانها ويتعرفان إليها أكثرَ وأكثرَ، كانت تتحدث إليهما بينما هو شارد في تفاصيلها، يرى فيها جمالاً لم يره أحدٌ فيها قبله.

***

سافر علي في إجازةٍ إلى منزلهِ في محافظةِ حماة حيثُ كانَ يقيمُ في قريةٍ مُجاورة للقرية التي يوجدُ فيها راني والمسلحون، أخبرَ والدتهُ التي كانت تسكنُ مع أخيهِ الذي كانَ عمره خمس سنوات بموضوعِ يارا لكنها عارضت بشدة لأنها كانت تنوي أن تقيمَ خطبتهُ على ابنة خالتهِ، وما زاد في رفضها هو اختلافِ الدين، غضب وهددها بأنها إن لم تذهب إلى قريةِ يارا وتطلبها من عائلتها فلن يريها وجهه ولن تعلم عنه شيئاً، وافقت بعدَ الضغطِ الشديد الذي مارسهُ عليها وهي تكن الكراهية لزوجة ابنها المستقبلية قبل أن تراها.

***

عادت يارا مع ميرال إلى المنزل قبل قدوم عائلتَيْ علي وخالد بيوم واحد، ألقت التحية على عائلتها ثم توجهت إلى غرفتها حيث أخذت جديلتها التي كانت تضعها فوقَ إطارِ صورةِ راني المعلقة

على الحائط ووضعتها في صندوقٍ صغير ثُمَّ خلعت خاتمَ الخطبة من يدها ووضعتهُ فوقَ الجديلة، أخرجت قلماً وورقة من الدرج الموجود في جوار السرير وكتبت عليها بعض الكتابات، وهي تغص بالدموع مودعة أحلامها الميتة ثم أخذت الصندوق وذهبت إلى منزلِ راني.

***

كانت أم راني مستلقية على الأريكة حين قرع الباب، ففتحته وأخذت تعانقها وتقبلها ثم نظرت إليها بحسرة قائلةً: ألن تتراجعي عن قرارِكِ يا ابنتي؟.

يارا: لقد تخلى راني عني، وأنا الآن أحاولُ ترميمَ رماد قلبي الذي أحرقه، هل تسمحينَ لي بالدخولِ إلى غُرفتهِ قليلاً.

ردت أم راني حزينة: طبعاً، تفضلي.

دخلت إلى غُرفته وأخذت تتأملها وتتذكر الأيام التي أمضتها في هذهِ الغُرفة معه ومع وجورج عندما كانوا يدرسون فيها معاً أيامَ الامتحاناتِ المدرسية.

جلست على سريرهِ ووضعت الصندوقَ جانباً وأخرجت من جيبها الورقة ووضعتها بداخله أيضاً، ثم حضنت وسادتهُ وأخذت تبكي بحرقةٍ، وبعد أن ألقت بعضاً من حزنها على سريره نهضت محاولةً أن تتماسكَ؛ وخرجت تاركةً الصندوقَ على السريرِ.

***

أُقيمَت حفلة زفافِ يارا مع حفلة خطبة ميرال معاً في صالةٍ في مدينةِ حمص، بدت يارا فاتنةً جداً، كانت سعيدة لكن ليس بحجم حزنها وخيبتها، فهي لم تتخيل يوماً أن يعقدَ قرانها على شخص غيرِ راني، كانَ علي مفتوناً بها حيثُ كانَ وجودها إلى جانبهِ كفيلاً بكونهِ سعيداً، أما والدتهُ فقد كانت غيرَ مسرورةٍ أبداً بما يحدُث، بدت ميرال أيضاً جميلةً حيثُ كانَ أفرادُ عائلةِ خالد يتحدثونَ عن بهائها ونعومتها فيما بينهم وفرح خالد بها لا يضاهى، رقص خالد مع ميرال فأمسك علي يد يارا قائلاً: هل تسمحين لي بهذه الرقصة.

يارا مبتسمة: بالطبع.

نظر إلى عينيها نظرة عميقة: يا الله ما أجمل عينيكِ على الرغم من أن حزناً لا يخفى يستوطنهما منذ عرفتكِ.... ألستِ سعيدة الآن؟.

يارا: بلى.... لكنني قلقة حيال حياة جديدة تنتظرني.

علي: لن أعدكِ لأنني أخاف أن يرغمني القدر على خيانة الوعد لكنني سأفعل ما بوسعي كي يهجر الحزن عينيكِ.

***

كانت ريهام تعد العشاءَ لراني مسرورةً بتغيرِ معاملتهِ معها إلى الأفضل لكنها كانت تلاحظُ دوماً أنَّ بالهُ مشغولٌ بشيءٍ ما دونَ أن يُخبرها بما يدور في ذهنه، فهوَ لم يخبرها حتى باسمهِ الحقيقي، كانت تظنُّ أنَّ اسمهُ أحمد وهوَ كانَ يخشى أن يُخبرها بالحقيقةِ خوفاً من والدها.

عندما انتهت أحضرت له الطعام وجلست تحدثهُ سعيدة مخبرةً إياهُ بأنهُ سيصبحُ أباً، غضبَ راني، فقد أحس أن هذا همٌّ جديد يبعدهُ أكثر عن الأمل في أن يعودَ يوماً إلى من يحب فوبّخها طالباً إليها التخلصَ من الطفل، لم تتوقع ريهام أن تكونَ ردةَ فعلِ راني بهذا الشكل، فقد ظنت أنه سيفرحُ بهذا فغادرت مائدةَ الطعامِ دون أن تأكل وجلست في إحدى الغُرف وأقفلت على نفسها البابَ وأخذت تبكي، بينما دفع هو مائدة الطعام الموضوعة في الصالة أرضاً وأخذ يحطم كل شيء حوله.

***

وبعدَ مرورِ عامٍ أمضتهُ يارا مع علي الذي كانَ يغمُرها بحبهِ ولطفهِ وكان مولعاً بها وقلبه متعلقٌ بها على الرغمِ من أنه كان يشعرُ أحياناً بأنها لا تحبهُ كما يحبها، فكانت حينَ تعودُ من جامعتها مُتأخرةً إلى المنزل تجدهُ قد أعد الطعامَ وينتظرها ليأكلا معاً، كانَ يسمحُ لها بزيارةِ صديقاتها وعائلتها متى شاءت، في مساء أحد الأيام دخل إلى الصالة عائداً إلى منزله ليجدها تفرد المحاضرات والكتب أمامها متهيّئة لامتحانات الغد، طبع قبلة رقيقة على جبينها ثم قال: غداً آخر امتحان لهذا الفصل، عليك أن تنجزيه بشكل جيد لأفخر بكِ أكثر.

يارا: لقد مللت الدراسة، كم أرغب في رحلة مطولة بعد هذا الضغط الدراسي.

علي: عندما أقول لكِ بأنكِ تجلسين في قلبي فأنا محق، لقد حجزت مقعدين من أجل الذهاب إلى قريتي في اليوم التالي لزفاف ميرال وخالد لزيارة والدتي، سآخذكِ في جولة في قريتنا عندما نذهب.

يارا: كم أنا متحمسة لهذا.

***

عادَ جورج إلى عملهِ بعدَ إجراءِ بعضِ التحقيقاتِ معهُ، حيث انتقل عمله إلى مدينة دمشق، كان يأتي في إجازة كل شهر لبضعة أيام يقضيها مع عائلته، فيجلس في فترة الحراسة شارداً يفكر في أمل وفي طفله المولود حديثاً والذي لم يشبع من رائحته بعد حين جاء أحد أصدقائه ليبلغه أن طلب الإجازة الذي قدمه للذهاب لحضور حفلة زفاف شقيقته قد تمت الموافقة عليه فتراقص قلبه فرحاً بهذا الخبر.

***

انتهت امتحاناتُ ميرال، أخذت تستعدُ لزفافها بمساعدةِ شقيقتها يارا التي كانت تساعدُها على إنجاز بعضِ التفاصيلِ الخاصة بالزفاف كاختيارِ الفستانِ والمجوهراتِ وتسريحةِ الشعرِ وبعضِ الأمورِ الأُخرى.

عُقدَ الزفافُ وكانَ هذا هو اليوم المنتظر في حياةِ كُلِ من ميرال وخالد. كانت يارا سعيدةً برؤيةِ عيني شقيقتها الصغيرة التي بدت في

غايةِ الجمالِ تبرقانِ فرحاً متمنية لها حياة سعيدة يغمرها الاستقرار والتفاهم.

***

كانَ راني جالساً على السريرِ يداعبُ طفلتهُ الصغيرة التي أسماها يارا والتي لم يتجاوز عمرها الشهرين، قد اقتنع بشكل شبه تام بأن ليس له نصيب بالعودة إلى دياره وإلى حبيبته التي لا يدري ما حلَّ بها من بعده، كانت هي غصة قلبه وأميرة ذكرياته المجهولة التي حاولت رهام بسببها الاستفسار مطولاً لتعلم ما يؤرق قلب زوجها لكن دون جدوى.

***

أخذ علي يخرج بعض الثياب التي ينوي حملها معه في رحلته بينما كانت يارا تستحم حين وجد دفتراً صغيراً في الجهة العلوية من الخزانة، فتحه ليجد فيه كتابات قد كتبتها يارا، بدأ يقرأ:

-١-

وحين شاب قلبي اعتزلت حبه ومضيت في طرقات الحياة كعجوز شابة تحاول إحياء ما تبقى لديها من جديد تبحث عن ذاتها القديمة في كل زاوية وشارع؛

ألعب مع الأطفال لعلي أجد فيهم شيئاً من نفسي وأنا لست بطفلة؛

أحادث الشابات لعل بريق الأمل يضيء داخلي وأنا لست بشابة؛

أجالس العجائز لأذكر عقلي باتزانه وأعيده إلى طريقه السوي وأنا لست عجوزاً؛

أنا حقاً لا أدري من أنا، لقد تاهت مني نفسي ولم أعد أجدها وكأن لعنة حبه قد أصابت قلبي وتعاويذ كلماتها قد خلدت في ذاكرتي إلى الأبد.

-٢-

على أطلالك وقفت بين النسيان والذاكرة أبكيك كما يبكي الغرباء أوطانهم يتحاشاك وعيي وفي اللاوعي أشتاقك، يتناساك قلبي وفي جوف التناسي تقطن ذكراك، عند كل مرور في مكان سابق لنا تتسارع خطواتي، تظن أنها تهرب بي نحو مكان يخلو منك من دون أن تدري بأن خطوات قلبي تسبقها وتسبقني.

-٣-

جميعنا مخادعون، الصدق طفل تاه في طرقات قلوبنا المظلمة، جميعنا ندعي أننا نمتلكه لكنها أكذوبة ساذجة ابتكرتها عقولنا لنقنع أنفسنا أننا مازلنا أرواح أطفال بيضاء لم يلوثها القدر ولم تعبث ببساطتها العواصف لتحنيها وتكسرها ألف مرة، جميعنا أرواح مشوهة.

-٤-

انتظر من فضلك لحظة، قبل ذهابك أخبرني، علمني كيف أتقن فن النسيان، كيف أمنع قلبي من الالتصاق بك!، كيف أدعك

تغادر دون أن تستوطنني حتى بعد رحيلك،دون أن يزيد تدفقك مع الدم الذي يضخه فؤادي كلما زادت المسافات؟

علّمني.... كيف أمر بطرقاتنا وحيدة ولا أسمع بكاء روحي؟؟؟

كيف أرى غيرنا مكاننا ولا يلتهب الدمع في عيني!!!

بالله عليك علمني أن أنام كل ليلة دون أن أسمع صوت تكسر أحلامي.

-٥-

نجفّ عندما نحيا بكثير من الموت.... قليل من الحياة.

-٦-

لست دقيقة في مواعيدي، أسعى دوماً لمفاجأة توقعاتكم، فعندما تنتظرون وقوعي سأقف وعندما تشتاقون إلى دموعي سأضحك وفي لهفتكم لرؤية ألمي عند خذلاني سأكون أكثر صلابة أمام انكساري.

-٧-

في ذاك الطريق جلست أداوي ألمي لأمضي قوية كما مضيت أنت، أجمع أشلاء ما تركته لي مني، أحتضن جراح الفراق النازفة حباً، أنظر إلى حيث ذهبت لعلك تعود، أراك في كل قادم رافضة أن أصارح نفسي في هوانها بأنك مضيت ولم تنطق بكلمة اعتذار... لم تمسح برفق على براكين الوجع التي فجرتها ولم تحاول حتى إخمادها، كل خطوة ثقيلة خطوتها كانت تكسر روحي التي تتشظى

نحوك عاشقة فتردها إليَّ لتغرس أجزاءها الحادة في طيات قلب أحبك.

-٨-

في هدوء كل ليلة ترحل روحي إليك في غفلة من عقلي، تحدق مدهوشة إلى عينيك الغافلتين عن جراحي... إلى جسدك المستلقي بهناء على معاناتي... تتمعن مغرمة في ملامحك التي تزيد جمالاً فتزداد عطشاً إليك متناسية أنها قد سرقت من إشراقي لتتفتح وزادت في ذبولي.

-٩-

لم أكن أنجو منك، كنت عالقة في متاهتك أتخبط بك أينما التفت، أتعلق بحبال النسيان فتنقطع بي كلما راودني اسمك.... كلما رأيت ظلاً أو استنشقت رحيقاً تناجيك روحي، تطلب الرحمة باكية ثم تسكن مترقبةً مجيئك في سكونها، تنتظرك ولا تأتي فتنطوي على نفسها منتحبة، كنت أسير في طرقاتنا منفردة أتلهف لمعجزة تجمعنا، أترقب الشتاء لعله يرمي بك إلي فأستعيدك أو أقله أروي أملي برؤيتك لأقوى على الصبر مجدداً عندما ترحل.

-١٠-

كقاطع طريق عيناك كلما مضيت في سبيلي هاجماني ليسلباني كل قوتي التي حاولت استجماعها للاستمرار من دونك.

-١١-

بحثت عن نفسي طويلاً، أخذت أفرد حقائب الماضي، أختلس النظر إلى ساحات النسيان أخشى أنها قد سقطت مني وأنا هاربة من حبك، أقلب دفاتر الذكريات راجية أن أرى صورة لها لأستذكرها لعلي، إن وجدتها، أبرم معها عقداً بعدم التخلي عنها من جديد.

-١٢-

تحملك إلى ذاكرتي عواصف النسيان دوماً، أطلب منها أن تأتي وحيدة لكنها تأبى، كأنها تريني انتصارها يوم حاولنا هزمها بالبقاء معاً فأرادت أن تنتقم وتعذبني برسم صورتك في مخيلتي مع كل ريح تهب منها.

-١٣-

كنت أملي وروميض أيامي، كنت ذاك الحلم الذي أحب أن يرتابني في النوم واليقظة واليوم استيقظت منك.... استيقظت لأرى من واقعك كابوساً كان يضع على قبحه قناعاً على هيئة حلم.

-١٤-

أزور مواطن الذكرى، أستنشق عبق ما تبقى من أولئك الذين رفضوا أن تبقى تلك اللحظات حاضراً، فرموا بها في مهملات الزمن وحفروا لها قبراً في قلوبهم ثم أحكموا إغلاق تابوتها كي لا تتسلل إليهم ليلاً، وتعلق في وسائدهم كما حدث لي حين ارتكبت هذا الخطأ.

أقبل جدران تلك الأمسيات النائمة لعلها تستيقظ لتدعوهم إلى إحيائها من جديد، فأحيا أنا بها.

ألملم ما تبعثر مني ومنهم لعل تلك البقايا تتعافى عندما أرعاها وأحتضنها فتعود إلينا لتكملنا وتعيد أنفسنا المهاجرة إلى تلك الأوطان لتدب فيها حياتها المسلوبة وتلتئم كل جراحنا الملتهبة.

-١٥-

بكيت شوقاً إليك حتى نزفت دموعي
ناديت خلف سرابك حتى تاه صوتي
لم يبق لي في قلبي سواك وآهاتي
جريت حافية المنطق عل أشواك ابتعادك
لماذا لم تلتفت؟

هل قبَّح الحب وجهي حتى تجاهلت ندائي، أم صفعك غرورك المولود بعد أن أحببتك.

قاطعت قراءته يارا التي أمسكت الدفتر من يده دون أن يلتفت قائلة بارتباك: إنها كتابات قديمة.

أمسكها من زنديها بقوة: ألهذه الدرجة أنتِ تعيسة معي؟؟؟؟؟ إني أفعل ما بوسعي مقابل ابتسامة منك تنسيني كل عذابي.

يارا: لست تعيسة أنت بلسمي.... قلت لك كتابة قديمة.

علي: كاذبة.

أفلتت نفسها منه بغضب قائلة: لا أنكر بأن في قلبي خيبة لم

أستطع تجاوزها لكنني لست كاذبة، كنت صادقة معك بكل شيء منذ البداية.

ثم فتحت على الصفحة التالية إلى آخر فقرة قد كتبتها حيث كان مدوناً فيها تاريخُ الزواج وقالت له وعيناها تغصان بالدموع: انظر... لم أكتب شيئاً منذ تزوجنا... لم أكذب.

عانقها بقوة وهو يكاد يبكي قائلاً: آسف يا حبيبتي لم أقصد.... لا تحزني... قولي لي بأنك تحبينني لعل قلبي يكف عن تمزيق نفسه بعد كل ما قرأت.

يارا: أحبك.

علي: كم تمنيت لو أحظى بحب أكبر من هذا في قلبك.

نزلت الدموع من عيني يارا: لماذا تؤذيني بهذه الكلمات.

علي: لم أقصد إيذاءكِ فهل هناك من يرغب في إيذاء روحه.

مسح دموعها وأكمل قائلاً: لا تبكي من أجل صحة طفلنا القادم، والآن سأكمل التجهيزات ريثما تهيئين نفسك كي لا نتأخر عن الحافلة.

***

جهزت أم علي مائدة كبيرة من الطعام للغداء، أما والده فكان منفصلاً عنها يقيم عند زوجته الثانية في محافظة دمشق، كان قلبها يتوق شوقاً لرؤية ابنها، أما زوجته فلم تكن مرغوباً فيها من قبلها، فهي كانت رافضة لزواجه منها منذ البداية. رحبت بعلي معانقةً إياه عناقاً حميماً وصافحت زوجته بأطراف أصابعها مصافحة أشعرت

يارا بأنه غير مرحبٍ بقدومها على عكس ما كانت تتصور، طبعت يارا قبلتين رقيقتين على وجه شقيق زوجها الذي يطفح وجهه بالبراءة بينما كان علي يحمله ويرجّحه بين يديه.

***

ارتاح علي ويارا من عناءِ السفر، ثم أخذها ليعرفها إلى قريته ولزيارة منازل أصدقائه والأقارب برفقة والدته وشقيقه.

عندَ عودتهِ إلى المنزلِ استأذن يارا طالباً أن يحدث والدته في غرفتهما وحدهما؛ بدأ الحديث بأسلوب علي الغاضب المعاتب: أمي لماذا تتصرفين هكذا؟؟؟.

الأم: ماذا فعلت يا بني؟.

علي: رحبت بيارا بأسلوب غير لائق، كم مرة عملتِ على التقليل من قيمتها أمام الأقارب والأصدقاء؟.

الأم: تفضل رضا زوجتكَ على والدتك؟.

علي: لم أفضل أحداً على أحد، رأيت كل شيء بعيني، هي لم تُسئ إليكِ قطّ عاملتكِ كوالدتها.

الأم: تعلم أني لم أردها لك زوجة منذ البداية، تشاجرت مع خالتك بسببها لأني كنت قد وعدتها بأن أزوجك ابنتها.

علي: وعد أنت من قطعته بلا علمي، وإن بقيتِ تعاملينها هكذا فسوف آخذها وأعود إلى منزلي.

الأم: حسناً سأحاول أن أتقبلها.

خرج من غرفتها وذهب حيث كانت تجلس يارا على سريره

حزينة، جلس في جوارها ووضع يده خلف عنقها وقربها إليه قائلاً: حبيبتي لا تحزني، إن قلب والدتي طيب جداً لكنها لم تعتد وجودكِ بعد.

يارا: لست حزينة، لكنني متعبة قليلاً،أرغب في أخذ قسط من الراحة.

***

في كل ليلة كانَت يارا تسمعُ أصواتَ إطلاقِ نارٍ واشتباكاتٍ، كانَ يُخبرها علي بأن لا تقلق وأن تعتادَ الأمر، فالقرية التي خلفهم يسيطرُ عليها المسلحون وهم يحاولون دخولَ قريتهم دوماً لكنَ محاولاتهم تبوءُ بالفشل.

قبلَ رحيلهم بيومٍ مساءً، خرجَ علي لزيارةِ أصدقائهِ في القريةِ التالية لقريتهم لتوديعهم، عانقَ يارا وقبلها على جبينها في حين كانت والدته تراقبهما من الصالة حيث كان باب غرفته مفتوحاً قائلاً:

لن أتأخر، لو لم تكوني متوهنة لأخذتك معي.

غادر برفقةِ أحد أصدقائهِ، بينما جلست يارا على السرير تتحدثُ مع ميرال وصديقاتها في الجامعة عبرَ تطبيقِ الواتس أب.

كانَ مساءً مشؤوماً علَت فيهِ أصوات الرصاصِ والمدافع، خرجت من غرفتها وجلست في الصالة مع أمِ علي وشقيقه سلمان تتناول العشاء.

أخذَ المسلحونَ يطلقونَ القذائفَ على القرية، كان هجومهم عنيفاً بقدر ما كانوا يحملون من الغل على أهلها بسبب تصديهم

مراراً وتكراراً لهم، لتسقطَ إحداها في جوارِ منزلِ علي وتخترقَ شظاياها نافذةَ الصالة لتصيبَ قدمَ يارا أسفلَ مفصلِ الرُكبة.

غمرَ الخوفُ قلبَ أم علي وأحضرت قطعةَ قماشٍ وأخذت تلفُّ بها قدمَ يارا التي كانت تتألمُ (يا إلهي إنها تؤلمني... لعنهم الله).

أم علي: سنذهب إلى الطبيب عندما يستقر الوضع قليلاً.

أما سلمان فكان يجهش بالبكاء عندما رأى قدمَها تنزفُ بشدة.

حاولت الوقوف لكنها لم تستطع حين علت أصواتُ أهلِ القريةِ خائفينَ وأخذَ بعضُ الشبابِ يقرعونَ أبوابَ منازلها صارخينَ: اخرجوا لقد اقتحمَ المُسلحون القرية سيقتلوننا لأننا من طائفةٍ أخرى.

كانَ الهلعُ يدبُّ في قلوبِ الناسِ هُناك وكأنه يوم القيامة، أخذوا يركضونَ نحوَ القريةِ التالية لقريتهم والتي كانت لا تزالُ آمنة، كانَ همُّ كُلِ شخصٍ هُناكَ أن ينجو بنفسهِ وعائلتهِ.

حاولت أم علي أن تُساعدَ يارا على النهوضِ لتهربَ معهما هيَ وابنها الصغير، لكنَّ يارا لم تستطع أن تمشي، فتركتها أُمُّ علي في المنزلِ وحملت طفلها سلمان الذي بُحَّ صوتهُ من شدةِ البكاء وأخذت تركضُ بالاتجاهِ الذي كانَ يركضُ فيهِ أهلُ القرية الخارجينَ منها نحو القريةِ المجاورة.

من جهتها، ارتجفت يارا من الخوفِ، فلم تصدق أن أم علي قد تركتها وغادرت دون أن تطلب حتى من أحدهم أن يساعدها وأخذت تصرخُ قائلةً: ساعدوني... ساعدوني، لكن من دون أن

يستجيبَ لها أحد، كانت أصواتُ الرصاصِ تقترب أكثرَ فأكثر، أخذت تدعو الربَّ أن تموتَ موتاً رحيماً بدونِ تعذيبٍ لأنها آمنت أن مصيرها سيكونُ الموت.

***

كان علي جالساً يلعب الشدة مع أصدقائه عندما سمعوا أغنية الحرب التي كانت تعزف على لحن من دماء وأوتار من فراق حيث شعروا بأن الأصوات أصبحت تقترب منهم، دب الخوف في قلب علي وأخذ يتصل بيارا دون إجابة، وما إن دخلت والدة صديقه إليهم لتخبرهم مذعورة بأن قريتهم قد تم اقتحامها، حتى خرج من المنزل مثل المجنون، أخذَ مركبةَ صديقهِ مُتجهاً نحوَ قريتهِ ليطمئنَ إلى أهلهِ إن استطاعوا الخروجَ ويخرجهم إن لم يخرجوا بعد.

***

عندَ حدود قريتهِ وجدَ تجمعاتِ الناسِ الهاربين الخارجينَ من القرية والشحوب يعلو وجوههم، والنساء يحملن أطفالهن بين أيديهن المرتجفة، نزلَ من المركبة مُسرعاً وأخذَ يبحثُ عن عائلتهِ بينَهم مُتقدماً في خطواتهِ إلى داخلِ القرية. عندما رأى والدتهُ حاملةً شقيقهُ انشرح قلبه لكنه انشراح لم يدم طويلاً، نظرَ حولها يبحثُ عن يارا، فقال لها هلعاً والذعرُ قد ملأ قلبهُ: أينَ يارا؟؟؟.

ارتبكت الأمُ قائلة: لقد أصيبت في ساقها ولم تستطع الخروجَ معنا.

صرخَ علي قائلاً: كيفَ تتركينها، لمَ لم تخبري أحداً أن يقلها في سيارتهِ.

ثُمَّ أخذَ يركضُ إلى داخلِ القرية وقلبهُ منقبضٌ خوفاً عليها، جلست والدتهُ على الأرض تصرخُ باكيةً وهي تتوسلُ إليهِ: أرجوك عد يا علي.... عد يا بني.... سيقتلونك.

التفت إليها متحسراً: لو كنت تخافين عليّ لأخرجتها... سيقتلونها هي وطفلي الذي في أحشائها.

***

وصلَ إلى منزلهِ الذي لم يكن يبعدُ عن تجمعاتِ المُسلحين القادمة سوى عشراتِ الأمتار، دخلَ ليجدَ يارا ترتجفُ في أرضِ الصالةَ خوفاً فاقتربَ منها ملهوفاً ونظرَ إلى ساقها قائلاً: لا تقلقي حبيبتي لن أدعكِ وحدكِ.

وعانقتهُ وهي تبكي وترتجفُ قائلة: لقد أوشكوا على الوصول.. سنموتُ.. ليتكَ لم تعُد... اذهب أرجوك.... اهرب.

علي: سنذهب معاً.

انحنى ليحملها حين دخلَ رجلٌ مسلحٌ المنزل وقالَ ساخراً: كم أنتما مُحزنان.

فنظرا إليهِ وكادَ قلبُهما يتوقف خوفاً، قالت لهُ يارا مُتوسلة وهي بالكادِ تستطيعُ أن تنطُق: أرجوكَ دعنا نذهب أتوسلُ إليكَ أن ترحمنا... أرجوك.

أشهرَ الرجُلُ بُندقيتهُ نحوهما، أخذ يتأمل جدران المنزل وما

لفت نظره هو صورة علي المعلقة على الحائط وهو يرتدي زيَّه العسكري، لم تقو يارا على أن تنظُرَ إلى ما سيحدُث فوضعت رأسها على كتفِ علي مُعانقةً إياه وأجهشت بالبُكاء، نظرَ علي إلى حالِ يارا وخاطبَ الرجلُ قائلاً: سأفعلُ لكَ ما تُريد لكن دعنا نذهب... حسناً اقتلني أنا لكن دعها تنج هي أرجوك...

لم يسمحِ الرجل لعلي بأن يُتمَّ كلامهُ فأطلقَ رصاصةً على رأسهِ، رفعت يارا وجهها ونظرت إليه باكية وهو يلتقط أنفاسهُ الأخيرة بينَ يديها قائلاً: اعتني بنفسك وبطفلي... أحبكما كثيراً.

أخذت تعانقه ودموعها تسقط على وجهه: أرجوك لا تمت... لا تمت.

ثم نظرت إلى الرجلِ صارخةً وروحها تتمزقُ وجعاً: لماذاااااااا؟..... لماذاااااا؟

وضمت علي إلى صدرها وأخذت تبكي وتبكي حتى كادَ صوتها ينقطعُ من شدةِ البُكاء.

***

دخلَ ثلاثةُ رجالٍ خلفَ ذلك الرجل كانَ من بينهم راني، وجّه الرجل بندقيته نحوَ يارا لكنَّ راني أمرهُ بأن ينزلَها ويخرجَ مع الرجلين الآخرينِ خارجَ المنزل لأنه هوَ قائدُ هذه المجموعة.

أخذَ ينظرُ إليها وهي تحضنُ علي وتبكي لكن دونَ أن يرى

وجهها ويعلمَ أنها حبيبته التي لم يحب يوماً سواها لأنها كانت تعانقه دون أن تنظرَ نحوه، بالكاد ضبط دموعهُ من ألمِ هذا المنظر.

نظرت إليهِ لتجدَ راني من يقفُ أمامها لكنها لم تكترث لهُ فألمها كانَ أقوى من لهفتها عليه،لم تستطع أن تصدق أنهم قد أنهوا حياة الرجلِ الذي أحبها كزوجةٍ وكطفلةٍ وكأم بهذه السهولة، كان الذنب يمزق قلبها لأنهُ فقد حياتهُ من أجلها، نظرَ راني إليها لكنهُ لم يصدق، فقد ظنَّ أنهُ يتوهم فاقتربَ منها مُتمعناً فيها جيداً.

عندما تحقّق بأنها هيَ قالَ لها مُستغرباً: يارا!!!! ماذا تفعلينَ هُنا... هل أنتِ بخير؟؟؟.

فأجابتهُ بصوتها المُرتجفِ الحزين وهيَ تحضنُ علي بقوة: لماذا قتلتم زوجي؟ إنهُ بريء عاد لإنقاذي... عاد لأنهُ يحبني، لم أشعرهُ يوماً بالحبِ الذي أشعرني بهِ، لقد ظلمتهُ وسلبتهُ حياته.

راني: زوجكِ!!!!.

بقيت يارا ممسكةً بعلي تمسحُ بيديها على وجههِ بلطف طالبةً منهُ أن يكلمها وكأنَ الجنونَ كادَ يُصيبها وهي تصرخ (أنا السبب.. أنا من تسببت بقتله).

أمسكها راني بلطف من ذراعها وهو يكادُ يختنقُ من مأساةِ ما حدث وطلب منها أن تتركَ علي وتذهبَ معهُ قبلَ أن يأتي بقية الرجال لكنها رفضت، فأبعدها عنهُ بقوة وهيَ تصرخُ وتبكي قائلة: لقد عادَ لأجلي، اقتلوني كما قتلتموه.

حضنها راني بقوة وأخذَ يمسحُ دموعها وهو حزينٌ قائلاً: أرجوكِ اهدئي عليكِ الذهابَ معي كي أحميكِ.

فدفعتهُ بذراعيها قائلة وهي تبكي: ابتعد عني... لا تتظاهر بالعطف فأنت مثلهم.

اقتلعت قسوةُ كلام يارا قلب راني من مكانهِ لكنّ كل همه كان حمايتها، فقامَ بمساعدتها رغماً عنها على الوقوفِ وجعلها مُستندةً إليهِ وأخرجها رغماً عنها من المنزل بعد أن شاهدَ إصابةِ قدمها، فلم يكن يستطيعُ حملها أمامَ رجالهِ لأنهُ سيأخذها كأسيرة.

وضعها في سيارتهِ وسيارةِ رجالهِ لكنهُ طلبَ من الرجالِ أن يكملوا مهامهم ولا يأتوا معهُ، وذهبَ بها إلى منزلهِ.

***

كانت رهام تداعب طفلتها حين سمعت باب المنزل يفتح فتوجهت نحوه، لتجد راني يحمل يارا ويدخلها، قالت بدهشة: من هذه؟.

راني: إنها أسيرة من المعركة.

أدخلها إلى إحدى الغرف في المنزل ووضعها على الأريكة، وهي تراقب رهام بنظراتها، تقول في نفسها (لقد تركني من أجلها، هي تلك الفتاة التي قال لي من أجلها لا أريدك، قتل هو ورجاله زوجي وحرموني منه ويحضرني اليوم إلى منزله لأرى بعيني كيف كنت وضيعة حين أحببته).

ردت رهام بغضب: وهكذا تدخل الأسيرة محمولة بين الأيدي، شبه عارية وشعرها منسدل على كتفيها!.

راني: أليس لديكِ رحمة،إنها مصابة بساقها، لقد دخل الرجال إلى منزلها وقتلوا زوجها.

رهام: حسناً حبيبي لا تغضب أنا آسفة.

راني: أحضري أدوات الإسعاف الأولية وبعضاً من البن.

خرجت رهام لإحضار الأدوات التي طلبها، بينما أمسك راني ساق يارا ليرى مكان الإصابة عن كثب، فدفعته بقدمها الأخرى قائلة: ابتعد عني... إياك أن تلمسني أيها القذر.

كلمات لم تخرج من قلبها لكنها خرجت من ألمها لتوقد جحيم الحزن المشتعل في قلبه. لم يسبق لها أن كلمته يوماً هكذا، كان يعذرها على الرغم من أن أحداً لم يكن يشعر بالمأساة التي داخله والتي كان يتعايش معها بصمت، التفت إلى رهام حين دخلت قائلاً: ضمدي جرحها، يجب أن أقابل القائد، سأعود سريعاً.

خرجت رهام خلفه وقالت بصوت خافت: هل ستتركها معنا، أنا لست مرتاحة لها.

رد راني غاضباً: رهام ما بكِ؟، لن تأكلك.

***

ذهبَ إلى القائدِ وأخبرهُ بشأنها متوسلاً بأنهُ يريدها غنيمة لهُ لتعتني بزوجتهِ المريضة ريثما تجرى مُبادلةٌ للجرحى ويعيدها، وافقَ

القائدُ على طلب راني بعد أن طلب إليه والدُ رهام الذي كانت لديهِ مكانتهُ عند القائد أن يوافقَ على هذا.

***

اقتربت رهام من يارا لتضمد جرحها، فأخذت يارا منها الأدوات قائلة بصوتها المبحوح: سأداوي نفسي بنفسي.

أخرجت من جيبها علبة دواء مسكّن ووضعتها أمامها: اشربي هذا الدواء، قارورة الماء في جوارك، سأذهب للاعتناء بطفلتي إنها تبكي.

يارا: لديكِ طفلة!!!.

رهام: نعم... بالشفاء إن شاء الله.

يارا: شكراً.

ابتسمت رهام: نعم إنها ابنتي يارا.

أخذت تداوي جرحها بيدها، كان ألم الجراح التي بداخلها يغطي على ألم ساقها الخارجي.

***

طُرِق البابُ، فتحت رهام لتجد امرأة ترتدي ثياباً سوداء وتعلق بكتفها بندقية، رهام: أهلاً نجوى.

المرأة: أين أبو مسلم؟.

رهام: خرج في عمل قال إنه لن يتأخر، تفضلي ادخلي.

المرأة: نحتاج إلى دم من الزمرة (O) .

سلبي، إنها كزمرة زوجك.

رأت المرأة يارا التي كانت تختلس النظر من النافذة، وخاطبت رهام: من في الداخل؟

رهام: إنها أسيرة أحضرها أحمد معه عقب معركة الليلة.

توجهت نحو الغرفة، فتحت الباب على يارا وقالت بسخرية: مهما أبديتم من المقاومة مصيركم أن تسحقوا تحت أقدامنا.

نظرت يارا إليها باستحقار وبصقت عليها، غضبت المرأة منها فاقتربت وأمسكتها من شعرها وأوقعتها أرضاً، ثم أخذت تركلها على وجهها وبطنها بينما هي تضع يدها عليه لحماية طفلها الذي أوصى علي به قبل رحيله، في حين كانت رهام تحاول إبعادها عنها.

***

فتح راني باب المنزل ودخل ليسمع صوت شجار ميّز منه صوت رهام تقول: يكفي... يكفي... ستقتلينها ابتعدي عنها، بينما تصرخ نجوى: السافلة... الحقيرة.

ركض مسرعاً إلى الغرفة الموجودة فيها يارا، جن جنونه عندما رأى نجوى تنهال بالضرب عليها فدفعها بقوة ثم صفعها صارخاً: لا أسمح لكِ أن تؤذي أحداً في منزلي... إنها موجودة هنا بأمرٍ من القائد.

كان يحاول ضبط نفسه كي لا يُشكَّ في أمره، وأمرها ريثما يخرجها بأمان من القرية.

ردت نجوى: أنا آسفة.

راني: اخرجي من هنا.... اخرجي.

التفت إلى يارا الملقاة أرضاً فاقدة الوعي، خاطب رهام بغضب: اخرجي وأخرجيها معك مثلما أدخلتها... بسرعة.

***

أوصلت رهام نجوى إلى الباب الخارجي ثم دخلت إلى غرفتها لتسكت طفلتها التي كانت تبكي، كانت خائفة من راني أن يوبخها لأنها سمحت لنجوى بالدخول إلى غرفة يارا، بينما حمل راني يارا بلهفة ووضعها على الأريكة وهو يضمها بين ذراعيه (سامحيني لأني تركتكِ وحيدة، آه يا إلهي، ساعدني على أن أخفي مشاعري أمامهم، إني أختنق، كيف سأتعامل معها على أني لا أحبها وأنا لا أجيد سوى عشقها، كيف سأخفي أعاصير الشوق التي تجتاحني).

نظر إلى يديه اللتين أصبح لونهما أحمر من دمائها، وعندما رأى الدماء تسيل لتلوث ثيابها، ارتجف قلبه خوفاً، أخذ يملأ كفه من قارورة الماء في جواره ويبلل به وجهها لكنها لم تستيقظ، فخرج من منزله مسرعاً وقد شحب وجهه من خوفه عليها.

***

أنهى جورج نوبة حراسته الليلية ودخل إلى غرفته حيث كان يقيم مع جنديين اثنين أحدهما من محافظة دير الزور والآخر من محافظة حلب، كانا نائمين وقد تركا له حصته من العشاء الذي أعداه، شعور غريب من الضيق كان يقبض على قلبه، لم يكن يرغب في تناول شيء، استلقى على سريره، أمسك هاتفه واتصل بيارا رنّ الهاتف كثيراً قبل أن يرد عليه رجل غليظ الصوت.

جورج: كيف حالك حبيبتي.

الرجل بسخرية: حبيبتك ماتت أو سُبيت لا أعلم.

ارتعش قلب جورج خوفاً، لم يكن صوت هذا الرجل يشبه صوت علي لكنه لم يصدق ما قاله فسأله متعجباً: علي!!!... هل تمازحني؟.

ضحك الرجل ضحكة طويلة: علي.. أظنه أصبح قطعاً أو أشلاء.

أغلق جورج الهاتف وفتح على موقع يبث أخباراً تخص مدينة حماة، ليجد أن قرية علي قد سيطر عليها المسلحون وارتكبوا فيها المجازر بسبب مقاومة أهلها لهم طوال الأعوام الماضية، أخذ يقلب بين صور القتلى ويده ترتجف خوفاً من أن يرى صورة شقيقته أو زوجها بينهم ليشاهد صورة علي وقد مُثلَ في جثته، لكنه لم يجد صورة ليارا، أخذت الدموع تتساقط من عينيه وهو يتمتم (يا إلهي... احمها يا عذراء... احميها يا أم النور.. كان الرب في عونك يا أختي... آمل أن تكوني بخير).

أخذ يبكي مثل طفل صغير، فشعر به أحد زملائه، خاطبه بتعجب: جورج ما بك؟.... أنت تبكي!!!!!.

جورج: لقد سيطروا على القرية التي كانت فيها شقيقتي، قتلوا زوجها ولا أدري ماذا فعلوا بها.

نهض من سريره وجلس في جواره وأخذ يواسيه: ستكون بخير إن شاء الله... كن قوياً فأنت رجل... أدع الله بأن يحميها لا يفيد سوى الدعاء.

***

طرق راني باب أحدِ المنازل مرات متتالية حتى يوقظ ساكنيه، نادت امرأة من خلف الباب بصوت يغلبه النعاس: من الطارق؟.

راني: خالتي أم أيمن أنا أحمد زوج أمل، أريدكِ في حالة إسعافية.

المرأة: انتظر يا بني سأرتدي ثيابي وآتي معك حالاً.

انتظر راني أمام المنزل ريثما جهزت نفسها وأحضرت الأدوات الطبية ثمَّ ذهبت مسرعة معه إلى منزله.

***

دخلت أم أيمن برفقة راني إلى الغرفة حيث توجد يارا وتبعتها أمل وهي تحمل طفلتها فقالت أم أيمن: يا إلهي إنها في وضع مؤسف... أخرجا من فضلكما، أريد أن أجري لها بعض الفحوصات.

خرجا حيث بقي راني أمام الغرفة واقفاً، أما أمل فجلست على كرسي في جواره، تمعنت أمل في ملامح وجهه الشاحبة ويديهِ اللتين كان يفركهما الواحدة بالأخرى من القلق وقالت: كأنك مهتم كثيراً بهذه الفتاة!!!!! هل تعرفها؟.

رد راني مرتبكاً: لا، إنني متعاطف معها فقط، رأيت حالها المحزنة عندما قُتل زوجها أمام عينيها فشعرت بالذنب.

رهام: صحيح أنك قاسٍ جداً لكني أعشق تلك «الحنية» التي في عينيك، على الرغم من أنها تثير غيرتي الآن.

راني: ما كان عليكِ السماح لنجوى بالدخول.

رهام: لقد رأتها من النافذة ودخلت كيف لي أن أمنعها.

راني: آمل أن لا تكرري موقفاً كهذا.

خرجت أم أيمن، بقي راني صامتاً ولم يسألها عن حال يارا كي لا يثير الشك أكثر من ذلك، خاطبتها أمل: ما بها؟.

أم أيمن: أصيبت بنزف فقدت بسببه الجنين.

قاطعها راني: كانت حاملاً!!!.

أم أيمن: نعم، والآن ضمدت لها إصابة ساقها، وحقنتها بإبرة مسكنة للألم... تركت لها مرهماً على الطاولة بقربها لتدلك به الكدمات التي في وجهها وجسدها.. يجب عليها أن تأكل جيداً لتعوض الدم الذي فقدته.

غادرت أم أيمن ودخل راني مع رهام للخلود إلى النوم بعد هذا اليوم الشاق، كان يتمنى أن يبقى في جوار حبيبته يعتني بها

ويخفف عنها، استلقى متظاهراً بالنوم وأخذ ينتظر حتى تغفو رهام التي كانت مستلقية إلى جانب طفلتها ليذهب إليها، أخذت الأفكار تأكل عقله (كيف ستستعيد يارا وعيها وحيدة في تلك الغرفة من دون أن تجدني في جوارها؟ هل تُراها صدَقت حقاً بأني تركتها لأتزوج رهام؟ هل كانت تعني ما قالته حين نعتتني بالقذر!!! هل يعقل أنها أصبحت تنظر إليّ كما تنظر إلى الرجال الذين قتلوا زوجها؟،..... يا إلهي ما أصعب ما مرَّ عليها ليس عليَّ أن أعاتبها على شيء، كم هو مؤسف أنني تركتها في ذاك اليوم بتلك الطريقة وأنا الذي أفضل ترك روحي على أن أتركها.... صحيح أني كنت أحلم بها دوماً، أتمنى أن ألقاها لكن ليس كما قابلتها، كنت مع الرجال الذين قتلوا زوجها أصبحت بنظرها مجرماً، تُرى هل أحبته حقاً أم أنه كان بديلاً لتنساني؟.... يبدو أنه كان يحبها،على أي حال هو شخص قتل أمام عينيها لأنه أراد إنقاذها،.... آه رأسي يكاد ينفجر، كم يؤلمني أن أكون سبباً في تعاستها.... لم أطمح يوماً إلا لإسعادها لكن لا أدري لماذا حكمني القدر لأكون ألماً لها...) بقيت الأفكار تتصارع في عقله حتى غدرته عيناه ونام بالفعل.

***

هو مشهد لن تنساه ما عاشت، صوته المتألم الذي كان يودعها (اعتني بنفسكِ وبطفلي)، نظراته، عيناه، يداه اللتان كانتا متشبثتين بيدها، كلها تفاصيل رحلت بين يديها، روح رجل فارقت الحياة بين

يدي حبيبته ربما هي سعادة له لكنها مأساتها الثائرة التي أيقظتها بعنف من نومها، فتحت عينيها لترى نفسها وحيدة في غرفة موحشة، تمعنت فيها بنظراتها لتسترجع كل ما جرى، أيقنت أنها فقدت طفلها لكنها بقيت تتجاهل التفكير في الأمر لعل هذا يهون عنها قليلاً، أخذت تمرّر يدها المرتجفة من الحزن على أماكن الكدمات لكنها لم تستطع أن تقاوم أو تتهرب من مواجهة ما حلَّ بها أكثر، وضعت الوسادة بالقرب من فمها وبكت بكاءً كادت تخرج فيه روحها من حنجرتها، بكاءً لم يسمع صوته إلا الله، كان جسدها يرتعش وكأنها تحتضر، تهمس بصوت غير مفهوم وكلمات مكسورة كقلبها (س.امح.ني يا عل.ي..... لم أست.تطع المح.افظ.ة على طف.لنا..... لا أص.دق أنهم قت.لوك..... عد وام.سح على جرا. حي كما ك.نت تفع.ل في ك.ل مر.ة..... ساع.دني يا إل.هي لم يع.د قلب.ي يحتم.ل).

***

لم يستطع جورج النوم طوال الليل. بقي مستيقظاً حتى حل وقت دوريته في الصباح، لم يخبر أحداً من عائلته بما جرى كي لا يشغل بالهم كما حدث له، خرج من غرفته بملابس العمل التي لم يخلعها عنه منذ الليلة الماضية بوجهه الشاحب وعينيه المحمرتين

من البكاء وقلة النوم، بدأ عمله بتفتيش وسائل النقل المارة والاطلاع على هويات ركابها وهو بالكاد يقوى على الوقوف.

***

كان راني يتقلب على السرير يحاول مواصلة نومه حين استدرك عقله أن ما حدث في الليلة الماضية كان حقيقة وليس حلماً، وقال في نفسه (يا إلهي لقد غفوت)، نظر إلى رهام النائمة في جواره وإلى طفلته النائمة على سريرها ثم خرج بهدوء مغلقاً الباب خلفه وتوجه إلى الغرفة حيث تقطن يارا.

فتح الباب عليها ليجدها جالسة على الأريكة هادئة كما لم يعهدها من قبل، تحدث بصوت خافت: الأميرة مستيقظة!!!.

جلس في جوارها وأخذ يتأمل وجهها المزرق من الضربات التي تلقتها من نجوى في الليلة الماضية وجفونها المحمرة من البكاء، قرب يده من شعرها متردداً: هل ما زالت جراحك تؤلمكِ؟؟..... هل أنتِ جائعة؟؟.

لم تكن تجيبه، كانت ساكنة بقدر إنهاك روحها وإرهاق قلبها، أكمل قائلاً: هل تتخيلين حقاً أن أحب سواكِ يوماً، لقد تركت قلبي في جوارك قبل أن أذهب، كيف سأحب بدون قلب... كل الذي ترينه الآن هو واقع فرض عليَّ أن أعيشه، استسلمت له بعد أن أصابني اليأس من العودة، أنتِ حلمي الذي لم يفارقني يوماً، ربطة العنق التي أخذتها منكِ في آخر لقاء مازلت أمتلكها، أكلمها كل

يوم ألجأ إليها كلما امتلكتني الوحدة... أرجوكِ تحدثي... لا تقلقيني من أجلك أكثر.... إن الحزن الذي أنتِ فيه يقتلني، تنقبض روحي لتخنقني عندما تكونين حزينة، فما بالكِ بالألم الذي أعانيه لأنني سبب في تعاستكِ!.

أمسك المرهم الذي أخبرته عنه أم أيمن، أخذ يطبع قبلة على كل كدمة في وجهها ثم يعصر على إصبعه القليل منه ويدلكها بلطف وهو يقول: (سيأتي يوم وأحرقهم بيدي، تلك السافلة نجوى سأعرف كيف أنتقم منها على ما فعلت).

كان سعيداً لأنها بقربه حزيناً على حالها في الوقت نفسه. تمنى لو قابلها في ظروف أفضل، أما هي فكانت شاردة تشعر بأنَّ هذه الحياة تنتقم منها وكأنَ كُلَّ شيءٍ يحدُث يتقصدُ إيذاءها.

سمع راني بكاء طفلته فقال ليارا: عليَّ أن أخرج الآن، إياكِ أن تظني بأني أخاف على مشاعر أحدٍ سواكِ، لكني أفعل كل هذا لأخرجكِ من هنا بأمان كي لا يؤذيكِ أحد.

خرج من الغرفة بهدوء وتظاهر أنه يغتسل في غرفة الاستحمام.

***

أيقظ رنين الهاتف ميرال وخالد، حاولت ميرال العودة إلى النوم بينما أخذ خالد يحدث زميله المتصل (أهلاً وسهلاً... علي!..... كيف حدث هذا؟؟..... وزوجته أين هي؟.... يا إلهي).

نهضت ميرال ملهوفة بعد أن أنهى المكالمة: ماذا حدث!!!؟؟؟؟.

تنهد خالد وبدت ملامح البؤس واضحة على وجهه، أجابها بصوت شجين: لقد قتلوا علي.

ميرال: مَن علي؟؟؟؟، زوج أختي؟؟؟؟.

خالد: نعم.

ترقرقت الدموع في عينيها: كيف حدث هذا؟.

ضمها إلى صدره بحزن: لقد استولى المسلحون على قريته وقتلوه.

ميرال: ويارا؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟.

خالد: لا أحد يعلم عنها شيئاً، آمل أنها بخير.

لم تستطع تمالك نفسها فأجهشت بالبكاء بينما أخذ خالد يمسح دموعها (اهدئي حبيبتي.... اهدئي.... آمل أنها بخير... لا تبكي يكفي).

كان يحاول أن يهون عنها لكن دموعه كادت تسبق دموعها حزناً على صديقه.

***

جهزت رهام الفطورَ في الصالة، خرجَ راني من غرفة الاستحمام يمسح شعره بمنديل في يده، اقتربت منهُ، طبعت قبلةً رقيقةً على خده: اجلس لنتناول الفطور، دقيقة سأطمئن إلى يارا (ابنتهما) ثم آتي لقد تركتها مستيقظة على السرير.

راني: حسناً خذي وقتكِ.

ثمَّ نظرَ باتجاهِ الغُرفةِ التي فيها يارا، رآها تنظرُ إليهما من النافذة،

كانَ قلبُهُ يحترقُ لما يحدُث ولأن وجودهُ مع رهام وطفلته أمامها هو سببٌ لزيادةِ ألمها وخيبتها، دخلَ إلى المطبخ وأخذ يعد طعاماً ليارا.

***

دخل راني إلى غرفة يارا مبتسماً: لا بدَ أن جميلتي جائعة؟.

جلس في جوارها: يجب أن تأكلي جيداً هكذا أخبرتنا الممرضة البارحة.

لم تستجب له فأمسكَ قطعةً من الخُبزِ ووضعَ فيها قطعةً من الجبنِ وقربها من فمِها لتأكل لكنها أدارت وجهها رافضةً أن تفتحَ فمها.

راني: أرجوكِ أن تأكلي، هيّا.

لم تتجاوب معه، ترك الطعام في جوارها قائلاً: آمل أن تأكلي، سأعود حين تسمح لي الفرصة.

وخرج من غرفتها مكسور الخاطر حزيناً بعد أن فشل في جعلها تأكل.

***

كانت رهام تجلسُ إلى المائدةِ تنتظرُهُ وهي غاضبة، صرخت بصوتٍ عالٍ حين رأته: لماذا أنت مُهتمٌ بها هكذا إنها مجرد أسيرة.... فلتمتْ ولتذهب إلى الجحيم.

ردَّ راني وهو يصرخُ غاضباً: اصمتي لا تتحدثي عنها هكذا.... اذهبي أنتِ إلى الجحيم.

صُدمت رهام من ردّ راني وردت وهيَ تكادُ تبكي: كُلُّ هذا لأجلها.... سأذهبُ اليومَ إلى والدي وأخبرهُ أن يأخذها من هُنا.

زادَ غضبُ راني وأمسكَ طاولةَ الطعامِ ودفعها موقعاً إياها على الأرض وقال: إن أخبرتِ أحداً فلن تريني ولن تري ابنتنا مرةً أخرى.

رهام: من هي حتى أنت مهتم هكذا!!!!.

راني: اصمتي لا أريد أن أسمع صوتكِ.

هو رجل كالطفل مع حبيبته وكوحش جارحٍ مع سواها، أخذت تنظفُ أرضَ الصالة من الطعامِ المنثورِ عليها وتلمُّ بقايا الصحونِ الزجاجية المُتحطمة وكأنها تلملم قطعَ قلبها التي حطمها راني بكلماتهِ وهي تبكي، بينما كانَ هو مُستلقياً على السريرِ يُداعبُ طفلتهُ الصغيرة.

***

في حديقة المنزل كانت أم جورج تسقي الأزهار، قدمت إليها أمل تحمل بين ذراعيها طفلها: هيَّا يا أمي أصبح الفطور جاهزاً.

أم جورج: سوف آتي حبيبتي شارفتُ الانتهاء، اتصلي بيارا، أريد أن أكلمها، لم أحدثها منذ يومين.

أمل: حسناً، الهاتف في الداخل سأتصل اتبعيني.

أم جورج: كلميها ريثما آتي.

دخلت أمل إلى المنزل وتوجهت إلى الشرفة حيث تركت هاتفها، أمسكته واتصلت بيارا لكن خطها كان مغلقاً بينما هي تحاول إعادة الاتصال اتصل جورج.

جورج: صباح الخير.

أمل: صباح النور حبيبي، لماذا صوتك متعب هكذا؟.

جورج: هل حاولتم الاتصال بيارا؟.

أمل: حاولت الآن خطها مغلق، لماذا؟.

جورج: هل والدتي في جوارك؟.

أمل: إنها في الخارج سوف تأتي بعد قليل، انشغل بالي ماذا حدث؟.

جورج: لقد اقتحم المسلحون قرية علي وقتلوه، ولا نعلم عن يارا شيئاً حتى الآن.

صدمت أمل بما قاله: يا إلهي.

جورج: لا تخبري والدتي، ولا أريد أن تشاهد ما يجري على قنوات الأخبار قولي لها إن شبكة الاتصال في محافظة حماة مقطوعة حالياً، لا أريد أن تتدهور حالتها الصحية.

تمالكت أمل نفسها وملكت دموعها: لا تقلق لن أخبرها، إنها قادمة.

أغلقت خط الهاتف ونظرت إلى أم جورج بارتباك: لقد أرسلت رسالة البارحة إلى جورج أخبره فيها أنّ الشبكة ستتعطل وتخضع لإصلاحات في قرية علي لبضعة أيام.

أم جورج: منذ البارحة وأنا أشعر بضيق في صدري لعله خير.

***

حلَّ المساءُ دونَ أن تقبلَ يارا تناول أيّ شيء أو تنطُقَ بكلمةٍ واحدة، كانت جالسةً هادئةً تماماً كأنها بقايا طيفٍ لروح راحلة، حاولَ راني الدخولَ إليها مراراً وتكراراً وأخذَ يُحدثها مُعبراً عن حُبهِ وعن مكانتها في قلبهِ محاولاً إخراجها من الحالةِ المأسويةِ التي كانت فيها دون جدوى، أما رهام فقد أخذت الغيرة تأكلها والحزن يمزقها من تعامُلِ راني الذي كان سيئاً معها واهتمامهِ الزائدِ بيارا دونَ أن تعلمَ بأنها كانت تعني الحياة لزوجها.

***

نامَ الجميعُ في المنزلِ إلا يارا، فروحها كانت أرقةً. كانَ المنزلُ ساكناً تماماً، أخرجها جرحها الساكن في قلبها من غُرفتها بهدوءٍ وهي بالكادِ تستطيعُ المشي على ساقها المصابة. اتجهت نحوَ غُرفةِ راني ورهام دون أن تعي ما الذي تفعله كانت تجهل حتى ذاتها في تلك اللحظة، قرعت بابها بهدوء لكنهما كانا نائمين فدخلت إليها وحملت الطفلةَ الصغيرةَ التي كانت موضوعةً على سريرٍ صغيرٍ إلى جانبِ سريري والديها ونظرت إليهما حيثُ كانا نائمينِ باتجاهينِ مُتعاكسين.

ثُمَّ خرجت من الغرفةِ حاملةً بينَ ذراعيها الطفلة وتوجهت إلى غُرفةِ الاستحمام، ففتحت الصنبورَ وأخذت تنتظرُ حتى يمتلئ

حوضُ الاستحمامِ بالمياه بينما هي تراقب الطفلة بنظراتها التي يستبيحها الألم.

***

سمعَ راني صوتَ المياهِ في غُرفةِ الاستحمامِ فظنَّ أن رهام تستحم، حاولَ مُتابعةَ نومهِ لكن الذكريات أخذته إلى لحظات كان دوماً يُحب أن يعيدها ويعيشها حتى ولو ذكرى.

هناك حيث ذهب هو وجورج ويارا إلى أحد شواطئ مدينة طرطوس، حين انشغل جورج بالتعرّف إلى فتيات كنَّ على الشاطئ بينما راح هو ويارا لممارسة السباحة، حيث عانقت صدره بيديها، وأخذ يسبح وهي متشبثة به، كم كان يحس بالثقة؛ حينذاك تمنى لو أنها تبقى ملتصقة به إلى الأبد لكن الظروف أبعدته عنها بعداً قسرياً كطفل أخذ من والدته عقب الولادة.

التفت إلى الجهة الثانية ليجد أن رهام في جواره، فنهض من فراشه قلقاً ليستطلع ما يحدث.

***

امتلأَ الحوضُ بالمياهِ، نظرت يارا إلى الطفلةِ الصغيرةِ التي كانت تُشبهُ الملائكةِ بجمالها وطهارتها وقالت بصوتٍ خافتٍ وبنبرةٍ حنونةٍ: سامحيني يا طفلتي، لكنني أريدُ أن أُريحكِ من عذابِ هذهِ الحياة.

ثُم وضعت الطفلة داخلَ الحوض حتى اختنقت من المياهِ وماتت، كانت تنظُرُ إليها بشفقةٍ دونَ أن تدرك ما تفعل.

***

توجه راني إلى غُرفةِ الاستحمامِ ليجد الباب مفتوحاً ويارا جالسةً على الأرضِ تحضُنُ الطفلة المفارقة للحياة بينَ ذراعيها، نظرت إليهِ وقالت بهدوءٍ وحزنٍ: لقد توفيت.

مدت لهُ يديها اللتين كانتا تحملانِ الطفلةَ التي كانت ساكنةً لا تبدي أيّ حركةٍ كدميةٍ صغيرةٍ، نظرَ راني مذعوراً إليها وأخذَ طفلتهُ ملهوفاً، وأخذت الدموعُ تتساقطُ من عينيهِ عندما وجدَ طفلتهُ الصغيرة مبللةً بالمياهِ وقد سُلبت روحها.

نظرت إليهِ يارا بحسرة وقالت بصوتٍ خافتٍ وهي تعاتبهُ: ما كانَ عليكَ أن تسميها يارا، أنا أنقذتها من حظها السيِّيء.

التفت راني إليها وهوَ يتمنى لو أنهُ كان يرى كابوساً وأن يكونَ ما حدثَ غير حقيقي، ثُمَّ أخرجَ طفلتهُ ووضعها على الطاولةِ في الصالة وعادَ إلى غُرفةِ الاستحمامِ غاضباً حيثُ كانت يارا لا تزالُ جالسةً في أرضها، فأمسكها من شعرها ووضعَ وجهها داخلَ حوضِ المياهِ حتى كادت تختنق ثُمَّ أخذَ يضربُ جبينها بطرفِ الحوض حتى جُرِحَ وسالت الدماءُ على عينيها.

بقي يضربها حتى أغميَ عليها ثُمَّ نظر إليها بعد أن ضبط أعصابه قليلاً وقد فقدت الوعي بين يديه، أخذ يهمس خائفاً وهو يمسح على وجهها الذي كادت تغرقه الدماء(كيف استطعت فعل

هذا!... أنا آسف.... يارا حبيبتي.... استيقظي.... أرجوكِ... لم أكن أقصد فعل هذا، لم أتحكم في نفسي) وضمها إلى صدره وأخذ يبكي بحرقة بكاء خرج من جوف قلبه.

***

استيقظت رهام على أصواتٍ صادرةٍ من غُرفةِ الاستحمام، نهضت لتجدَ راني وطفلتهما ليسا في الغُرفة لتبدأ مأساتها من هذه اللحظة.

خرجت لتجدَ طفلتها الصغيرةَ موضوعةً على الطاولة، فاستغربت هذا واقتربت منها وحملتها بينَ ذراعيها ثُمَّ أخذت تصرخُ وتبكي عندما وجدتها مُبللةً وهيَ فاقدةٌ للحياة.

سمعَ راني نحيبَ رهام فخرجَ نحوها وحضنها محاولاً أن يُهدئها وهي تبكي بحرقةٍ قائلة: من سلبَ حياةَ طفلتي الصغيرة؟

توجهت نحوَ غُرفةِ الاستحمامِ وهيَ تحملُ طفلتها بينَ ذراعيها لتجدَ يارا مرميةً على أرضها ووجهها تغطيه الدماء وشعرُها مبللٌ بالمياه، فنظرت إلى راني صارخة بغضب: لقد قتلت تلكَ الفتاةُ طفلتي.... إنها لا تزالُ تتنفس لِمَ لم تنه حياتها بالكامل.

ركعت على ركبتيها وهي تضم طفلتها إلى صدرها (يا لللللله.... يا لللله).

ردَّ راني حزيناً مُرتبكاً والدموعُ تترقرقُ في عينيهِ: سأنهي حياتها

لاحقاً، ادخلي الآن إلى المطبخ وأحضري لي الأدوات لأحفرَ قبراً للصغيرةِ في حديقةِ المنزل.

كانَ قلبُ رهام ينبضُ حقداً على يارا وحزناً على ما حدث، فقالت وهي تبكي وتئن: لن أفعلَ هذا.... في حديقة المنزل!!!، سأخبرُ والدي ليفصلَ رأسَ هذهِ الفتاةِ عن جسدها أمام جميعِ أهلِ القرية.

صرخَ راني قائلاً: رهام... افعلي ما قلتُ لكِ.

ردت رهام باكية: لن أفعلَ هذا حتى آخُذَ ثمن حياةِ ابنتي من تلكَ الفتاة.

***

دخلت رهام غُرفتها ووضعت طفلتها على السريرِ والدموع تتساقط من عينيها، أخذت تبدلُ ملابسها لتذهبَ إلى والدها بينما كان راني لا يعلمُ ماذا يفعلُ لينقذَ حياةَ يارا، فحُبهُ لها كانَ أقوى من كُلّ شيء، لم يستطع حبه لابنته الذي دام شهرين أن يلغي من قلبه حبها الذي قطن قلبه منذ طفولته وسيستمر حتى آخر رمقٍ له.

***

خرجت رهام من غُرفتها والدموع تُغرقُ خديها مُتجهةً نحوَ بابِ المنزلِ الخارجي فوقفَ راني في طريقها وقالَ لها بغضب: عودي إلى الداخل لن نخبرَ أحداً.

نظرت رهام إليهِ مُستغربة وردت بصوتٍ مبحوح من كثرةِ البكاء: من هذهِ الفتاةُ يا أحمد التي تخليتَ عن روحِ ابنتنا لأجلها؟

ارتبكَ راني وقالَ: إنها مُجردُ أسيرة.

صرخت رهام قائلة: هذا ليسَ صحيحاً بالنسبةِ إليك.

دفعتهُ لتخرُجَ، فأمسكها بقوةٍ وصفعها ثمَّ أدخلها إلى غُرفتهما ورماها على السريرِ وهيَ تكادُ تنهارُ من الحُزنِ والصدمةِ،خرجَ مُسرعاً إلى حديقةِ المنزلِ التي كانت في جوارِ الصالة، أحضرَ بعض الحبالِ التي كانت مرميةً في أرضها وقامَ بتقييدِ يديها وقدميها بإحكامٍ ثمَّ ربطَ قطعةَ قماشٍ حولَ فمها كي تتوقفَ عن الصراخِ وطلبِ المساعدة، حاولت رهام أن تبعدهُ عنها لتفرّ منهُ عندما جاءَ لتقييدها لكنها فشلت، فهو أقوى منها وحالتُها المُحزنة لم تسمح لها بأن تقاومَ كثيراً.

***

اتجهَ نحوَ غُرفةِ الاستحمامِ،حملَ يارا التي لا تزالُ فاقدةً للوعيِ ووضعها مُستلقيةً في الغُرفةِ التي كانت موضوعةً فيها على إحدى الأرائكِ.

أحضرَ قطعةَ قُماشٍ وأخذَ يمسحُ الدمَ السائلَ على وجهها، ثُمَّ أحضرَ عُلبةً من الكحولِ وفتحها وقربها من أنفها كي تشُمَّ رائحتها وتستيقظ.

فتحت عينيها ببطء ثُمَّ وضعت يدها على جبينها الذي كانَ

يؤلمُها، أخذ يُضمدُ جُرحها دونَ أن يُكلمها أو حتى ينظُرَ إلى عينيها من شدةِ غضبه منها، أما هيَ فبقيت تنظُر إليهِ وهو يضمدُ الجُرحَ بصمت دون أن تعي قبح ما ارتكبت يداها كأن شدة الألم الذي مرت به قد جعلها لا تشعر بشيء.

عندما انتهى أخذَ يحفرُ في حديقةِ منزلهِ قبراً لطفلتهِ الصغيرة، وقبل دفنها نظرَ إليها وهو يُمسكها بين ذراعيهِ ودموعهُ تتساقط على وجهها الصغير، وضعها فيهِ وروحه تتقطع بينما كانت يارا نائمةً في غُرفتها وأنينِ رهام يملأُ المنزل.

***

لم تستطع أم جورج النوم رغم تأخر الوقت ونوم أمل وطفلها، خرجت إلى الصالة وشَغّلت التلفاز على إحدى قنوات الأخبار، تجمدت أوصالها حين شاهدت المجازر التي شهدتها قرية علي، دخلت إلى غرفة أمل بهدوء وأخذت تنقر على كتفها لتوقظها وتقول بصوت مرتجف: أمل.... أمل.... استيقظي.

فتحت أمل عينيها: ماذا هناك؟؟؟.

أم جورج: أين يارا يا أمل؟؟؟.

ارتبكت وشعرت أنها قد علمت وردت قائلة: قلت لكِ إن شبكة الهاتف معطلة في قرية علي.

وضعت أم جورج يديها على وجهها وعينيها: لقد رأيت ما حدث في نشرة الأخبار... هل هي حية؟؟؟.... هل تعلمين شيئاً عنها؟، أخبريني أرجوكِ.

أمل: آمل أنها حيَّة لم يذكر اسمها مع الشهداء، أظنها أسيرة لديهم... أرجوكِ اهدئي.

أم جورج: وعلي؟؟؟؟.

أمل: لقد قتلوه.

خرجت أم جورج وهي تضع يدها على فمها كي لا توقظ الطفل الصغير النائم ببكائها، جلست في سريرها والدموع لا تفارق عينيها اللتين غادرهما النوم.

***

نامت ميرال ودموعها تُغرقُ خديها حُزناً على شقيقتها وزوجها، وخالد يجلسُ إلى جانبها على السرير وينظرُ إلى صورهِ مع علي على هاتفهِ النقال ويتذكرُ أيامهُما معاً، يدعو لهُ بالرحمة وهوَ يكادُ يختنقُ من الحزنِ عليه وقلبه ينفطرُ وجعاً؛ فبين يوم وليلة يغادرنا أحباء ظننا أنهم لن يفارقونا إلا بعد زمن طويل، نلقاهم دون أن نعلم بأنه لقاؤنا الأخير، نتفق معهم على مواعيد لنراهم فيها لكنهم يصبحون غائبين عن كل المواعيد خالدين في الذكرى بعد أن نفدت أيامهم بيننا.

***

في ظهيرةِ اليومِ التالي استيقظَ راني على رنينِ هاتفهِ النقال، فأجابَ على المُكالمةِ وكانَ المُتصلُ هو القائد، وقد اتصل ليخبرهُ أن يُعدَّ يارا ويحضرها إليهِ لإعادتها إلى أهلها في صفقةٍ لتبادلِ الأسرى. ارتاحَ وخفّ عبءُ قلبهِ لأنهُ سيؤمّنُ لها خروجاً آمناً من هذه القرية.

نهض من على الأريكة التي كان ينام عليها في الصالة، دخل إلى زوجته التي كاد الدم يخرج من عينيها، وانطبعت آثار صفعته على خدها، أزال قطعة القماش من حول فمها وقال بحزن: لم أقصد أن أؤذيك هكذا سامحيني... اتصلوا بي اليوم، سوف تغادر القرية ويمكنكِ حينذاك أن تذهبي إلى والدكِ وتخبريه كي يثأر مني.

ردت بصوتها الحزين الذي غير البكاء نبرته: مَن هي حتى تضحي بنفسكَ لأجلها؟.... من هذه الفتاة؟؟؟.

راني: إنها كل شيء.

رهام: لم أفهم!!!.

راني: إنها حب طفولتي، الفتاة التي كنت سأتزوجها لو لم أجبر على القتال معكم، لو لم يأخذ أمثال والدكِ القطعة العسكرية التي كنت فيها لكنت تزوجتها الآن.

صدمت رهام مما سمعته: لكنها مسيحية، إنّ إشارة الصليب موشومة على أجزاء متفرقة من جسدها!.

راني: وأنا لست مسلماً لقد ادعيتُ الإسلام كما ادعاه معظمكم.

رهام: أنا لا أصدق.. أنا أحلم.... لقد كانت متزوجة غيرك وأوشكت أن تنجب منه.

راني: هي لم تفعل هذا إلا بعد أن كسرت قلبها وتخليت عنها.... مهما فعلت أو ستفعل لا أستطيع أن أكرهها، إنها إلهتي على هذه الأرض.

أخذت تصرخ وتبكي: أيها الحقير.... أيها الوضيع، لقد

أحببتك، ما هو ذنبي أنا... ما ذنب طفلتي الصغيرة؟. أعاد إغلاق فمها بقطعة القماش وهو يقول: قلتُ لكِ افعلي ما شئتِ، لكن ليس قبل أن أخرجها من هنا.... لقد عملت كل شيء وبقيت حيّاً لأجلها، حتى الآن، فكيفَ بوسعي أن أجعلكِ تتسببينَ بقتلها.

.....

أخذ غطاء للشعر من خزانتها وخرج من الغرفة صافقاً الباب خلفه.

***

دخل إلى الغرفة التي تنام فيها يارا، وضع طبق الطعام وغطاء الشعر على الطاولة، جلس في جوارها، أخذ يتأملها مودعاً إياها بعينيه، هو يعلم أنها ربما المرة الأخيرة التي سيراها فيها، فهو سينتظر مصيره المشؤوم بعد رحيلها عندما تخبر رهام والدها بحقيقته، أيقظها بلطف وهو يمسح على شعرها، فقد فاق حجم حبه لها حجم حزنه منها: انهضي... ستغادرين اليوم هذه القرية.

فتحت عينيها وجلست مسندة ظهرها إلى طرف الأريكة، أخذت تنظر إليه، كان بالنسبة إليها الجزء الأكبر من الألم المتمركز في قلبها والذي شطر روحها التي كانت يوماً تحب الحياة.

قرَّب طبق الطعام الذي يحوي حساء الخضار مع اللحم من فمها: هيَّا عليكِ أن تأكلي... لم تتناولي الطعام منذ يومين.

همست بصوتٍ بالكاد يسمع: لا أريد.

راني: انظري إلى وجهك كيف يبدو متعباً، هيّا لأجلي.

يارا: لا أريد.

غصّ راني بحزنه: ربما لن أراكِ إلى الأبد، كنت آمل أن يكون وداعاً غير هذا.

قدم لها غطاء الشعر وأكمل قائلاً: ضعيه عندما نغادر كي لا يتعرض لكِ أحدٌ من الحثالة، لم أستطع الاعتناء بكِ وأنتِ هنا، ستكونين بين أفراد عائلتكِ أفضل.

صوت متعب كان يهمس في قلبها (كُنتَ يوماً عائلتي، بل كنت أغلى من ذلك، وربما حتى الآن أنت هكذا لكن فؤادي لم يعد يحتمل أن يشعر بشيء، طرد منه كل المشاعر كي لا يختنق بها).

***

حملها باتجاهِ البابِ الخارجي لأنها لم تكن تستطيعُ المشي بشكلٍ طبيعي، وقبلَ أن يخرُجَ معها من منزلهِ نظرَ إليها وهو لا يعلمُ، أيحزنُ منها أم عليها. فقد كانت في حالةٍ يُرثى لها، كانَ الجرح الذي في جبينها كبيراً وجزءٌ من جبينها متورّماً، قالَ لها حزيناً: أخبري أُمي أنني مشتاقٌ إليها كثيراً، وأنتِ أيضاً سأشتاقُ إليك وعليكِ أن تعلمي أنني لم أتقصد أن أؤلمَ قلبكِ يوماً، وأن حبكِ في قلبي لن ينتهي إلا عندَ موتي.... سامحيني.

***

بعد أن تمت صفقةُ مُبادلةِ الأسرى صعدت يارا إحدى مركباتِ الجيشِ التي كانَ فيها ثلاثةُ عناصر، السائق وجُنديٌّ إلى جانبهِ وآخر في الخلفِ يجلسُ إلى جانبها، كانت تسندُ رأسها إلى النافذة التي في جوارها وتنظرُ إلى الطريقِ من خلالها وكأنها لم تعد تحس بوجودها ولا بما يحدثُ حولها.

طلبَ السائقُ منها أن تُخبره بمكانِ إقامةِ عائلتها، فأخبرتهُ وهيَ في قمةِ الهدوءِ دون أن تلتفتَ نحوهُ حتى وكأنّ عقلها ليسَ قادراً على فهمِ ما جرى وما الذي يجري الآن، قالَ الجنديُ المجاورُ لها للسائق: ألا يجبُ أخذها إلى المشفى أولاً.

ردت يارا بصوتها الذي بالكادِ يخرُجُ من فمها: أريدُ أن أذهبَ إلى عائلتي.

نظرَ إليها الجُنديُ المجاورُ لها قائلاً: هل آذوكِ كثيراً؟.

التفتت إليهِ يارا والدموعُ تترقرقُ في عينيها ثُمَّ أعادت النظرَ عبر النافذة دون أن تجيبهُ.

***

عادَ راني إلى منزلهِ وقامَ بفكّ قيودِ زوجتهِ، التي نظرت إليهِ وهيَ بالكادِ تقوى على فتحِ عينيها وقالت بصوتٍ خافت وكأنَ روحها تخرجُ مع هذا الصوت: لقد جعلتها تذهبُ أليسَ كذلك؟

ردّ راني حزيناً: يُمكنكِ الآن أن تذهبي إلى والدكِ وتخبريهِ بما جرى كي يفصل لي رأسي عن جسدي فأنا مستعدٌّ لذلك.

كانت رهام تحبُ راني كثيراً وتخشى عليهِ من كلِ شيء، لم يطاوعها قلبها أن تخبرَ أحداً بما فعلهُ أو تقومَ بإيذائهِ رغمَ جروحِ قلبها التي تكادُ تقتلُها، أصبح حبها له هو السرطان الذي يجري في جسدها ويدمر خلايا قلبها حزناً.

***

توقفت سيارةُ الجيشِ أمامَ منزلِ يارا، كانت أمُ جورج جالسةً في الصالةِ حزينةً وقد بدا الشحوبُ والغمُّ على وجهها، عندما سمعت صوتَ السيارة التي توقفت بالقربِ من المنزلِ نظرت من النافذة لتجدَ أن ابنتها يارا قد نزلت منها.

خرجت الأمُ المسكينةُ من المنزلِ لاستقبالِ ابنتها وقلبها يضخُّ الفرحَ في عروقها بعودتها، عانقتها وأخذت تقبلُ خديها ويديها وهيَ ملهوفةٌ وتشكرُ الربّ على إعادتها إليها (حبيبتي يا ابنتي يا روحي.... هل تؤلمك هذه الجراح... فليحرقهم الرب)، أما يارا فكانت جامدةً كصنمٍ لا يشعرُ بشيءٍ.

خرجت أم راني من منزلها لتجدَ أن يارا قد أتت، اقتربت منها مُسرعة وأخذت تُقبلها وتعانقها بحرارةٍ، فقد كانت تعتبرها من رائحةِ ابنها الغائبِ.

أغمي على يارا وهي بين أيديهما فأدخلتها أمّ راني وأمّ جورجِ إلى المنزلِ وقد دبَّ الخوف في قلبيهما بينما استيقظت أمل التي كانت نائمة في غُرفتها إلى جانبِ طفلها على صوتِ أمّ جورج وهيَ

تبكي خائفةً على يارا، سارعت أمُّ راني خارجةً من المنزلِ لإحضارِ الطبيبةِ التي كانت تقيمُ في القرية.

قامت الطبيبة بفحصها ثُمَّ اتصلت بالمشفى الذي كان في القرية المجاورة وأعطتهم العنوانَ طالبةً إرسالَ سيارةِ إسعافٍ لنقلها إلى المشفى.

***

دبَّ الفرح في قلَبْي جورج وميرال حينما اتصلت بهما أمل لتخبرهما بعودة يارا، سارع جورج إلى رئيسه في العمل ليطلب منه إجازة ليذهب ويطمئنَّ على شقيقته، بينما أخبرت ميرال زوجها وطلبت منه تقديم طلب لإجازة أيضاً ليذهب معها لزيارة يارا.

***

بينما كان راني جالساً على كرسي أمام مقرِّ القيادة لديهم يعاتب نفسه (يا إلهي ما كان عليَّ أن أضربها هكذا ليت يدي قطعت، لقد تسببت لها بجرح عميق في جبينها، كانت في حالة نفسية مؤسفة، كيف تصرفت بهذه القسوة معها، كان ينبغي أن أرعاها لكنني لم أتحكم في نفسي حينذاك، الرب وحده يعلم حجم الأذى والوحدة اللذين كانت تشعر بهما، آمل أن تسامحني....).

قطع شروده أحد الرجال الذي جلس في جواره، واقترب من أذنه ليهمس بصوتٍ خافت: كيف حالك يا راني؟.

تعجب راني، نظر إلى الرجل وأخذ يتأمل ملامحه: حسين!!!.

الرجل: نعم، أتذكر ذلك اليوم المأسوي الذي اضطررنا فيه إلى تسليم أنفسنا.

فرح قلب راني لوجود من يماثله حالاً ورد بصوت خفيض: لم أركَ منذ ذلك الوقت أين كنت؟.

الرجل: لقد نقلونا أنا وأمير ومحمد إلى قرية أخرى ومنذ يومين أحضرونا إلى هنا، كنت أنتظر الفرصة المناسبة كي أكلمك وحدنا، أين جورج ألم يكن معك؟.

راني: لقد حالفه الحظ واستطاع الفرار، وأكمل بحسرة: أما أنا فيبدو أنني سأموت هُنا... أين محمد وأمير؟.

خفض الرجل رأسه حزناً: لقد فقدوا حياتهما في المعارك التي خضناها، كانا يأملان أن يعودا يوماً إلى عائلتيهما لكن القدر لم يرد لهما هذا.

راني: وأنت لا تتمنى هذا؟.

الرجل: أنا لا أتمنى فقط، أنا أسعى لهذا.

راني: كيف؟؟؟؟... وأنا أريد العودة أيضاً أرجوك ساعدني.

الرجل: أنا ومجموعة من الرجال سنخرج في سيارة متظاهرين أننا ذاهبون في مهمة قتالية ضد أول حاجز للجيش في القرية التي خلفنا، لكن أحدنا يعرف المسؤول عن الحاجز وقد اتفق معه بهذا الشأن. سوف نسلم أنفسنا هناك، وبعد بعض التحقيقات سيطلقوننا وفق مرسوم العفو الذي صدر أخيراً.

لمع بريق الأمل الذي كان خامداً لزمنٍ طويلٍ في عيني راني: أنا متشوق لهذا، أريد أن أخرج من هذه المقبرة قبل أن أدفن فيها.

الرجل: سوف أخبرك في الوقت المناسب كن حذراً ولا تخبر أحداً وإلا قتلونا جميعنا.

راني: بالتأكيد لن أخبر أحداً، يعرفونني هنا باسم أحمد لا تُخطئ في مناداتي.

***

قضت يارا أسبوعاً في المشفى حتى تحسنت حالتها النفسية والجسدية بإعطائها بعض المُهدئاتِ والأدوية والمُسكنات، ثم نقلت إلى المنزل حيث كان جميعُ أفرادِ عائلتها يجلسونَ حولها في غُرفتها فرحينَ بوجودها بينهم، لكنها لم تكن سعيدةً بشيءٍ، تملأ ذاكرتها مشاهد القتل والدماء. فما حدثَ معها لم يترك مكاناً للفرحِ في قلبها. لم تخبر أحداً بما حدث معها ولم يسألها أحد كي لا يزيدوا حزنها، كانَ خالد ينظرُ إليها حزيناً يتذكرُ صديقهُ علي كم كان يُحبها، أما جورج فقد أمضى الليل في جوارها يعتني بها بعد أن رفض من والدته وميرال القيام بذلك، وبعد أن نامت استلقى في جوارها وحضنها، كانت شقيقته المفضلة ونصفه الآخر منذ صغرهما.

في صباحِ اليومِ التالي غادرت ميرال مع زوجها المنزل وغادرَ

معهما جورج إلى مدينةِ حمص ثُمَّ صعدَ من الكاراجِ الموجودِ هُناك في إحدى الحافلات المتوجهة إلى مدينةِ دمشق.

***

سلم راني نفسه مع بعض الرجال وفق الخطة المتفق عليها، كان في قمة السعادة كأنه انتقل من الجحيم إلى الجنة، لم يعد مباشرةً إلى قريتهِ فقد كانَ عليهِ الخضوعُ أولاً لبعضِ الإجراءاتِ والتحقيقات وتركَ رسالةً لرهامِ التي كانَ هو وهي مُتخاصمينِ لا حديثَ بينهما يقولُ فيها:

«سأعودُ إلى حياتي القديمة لأعيشَ مع والدتي التي أضناها غيابي وألملمَ جراحَ حبيبتي التي قتل أمثالُ والدكِ ورجالهُ ضحكتها، وحطموا قلبها الذي كانَ دوماً يحبُ الحياة، أرجو أن تسامحيني، فأنا لم أكن منكم يوماً، لقد تمسكتُ بحياتي طوالَ هذا الوقتِ رغمَ معاناتي لأنها أوصتني أن أبقى حياً ولأنني وعدتها أن أعودَ إليها يوماً... سامحيني».

***

كانت يارا جالسةً في غُرفتها وحدها، أخذت تتذكرُ كُلَّ ما حدثَ معها والدموعُ تتساقطُ من عينيها ثُمَّ تذكرت الطفلة الصغيرة التي قتلتها ولم يكن لها ذنبٌ بشيء فأخذت تصرخُ وتبكي قائلةً: لقد قتلتها.... لقد قتلتها....

دخلت والدتها مذعورةً إلى غُرفتها وتبعتها أمل التي كانت

تحملُ بينَ ذراعيها طفلها الصغير، فحضنتها والدتها: اهدئي يا ابنتي... اهدئي يا حبيبتي.

أبعدت والدتها عنها وأخذت تنظرُ إلى عينيها وهيَ تذرفُ الدموعَ قائلة: أقسمُ لكِ يا أمي إنني لستُ مجرمةً، لكنني لم أكن أعي ما أفعل.... لم أشعر بما فعلت وكأنني كنت مخدرة.

ردت الأمُ قائلةً والدموعُ تترقرقُ في عينيها: لا عليكِ يا ابنتي... اهدئي.

أجهشت يارا بالبكاءِ وهيَ تقول: لقد كانت طفلةً صغيرةً جميلةً كالملائكة لا أعلمُ كيفَ فعلتُ بها هذا.... لقد قتلتها بلا ذنب.

أخافت أمل كلماتُ يارا وولّدت في قلبها الخوف على طفلها الصغير منها.

أعطتِ الأمُ حبةً من الدواءِ ليارا لكي تهدأ، فتناولتها وبقيت تبكي حتى سرى مفعول الحبة ونامت.

***

في المساءِ بينما كانت أمُ راني وأمُ جورج جالستينِ على الشرفة استيقظت يارا وسمعت صوتَ الطفلِ الصغيرِ فادي يبكي، فغرفةُ جورج كانت في جوارِ غُرفتها، خرجت من غُرفتها وطرقت بابَ غُرفةِ جورج لكن لم يكن بداخلها سوى الطفلِ فحملته وأخذت تداعبهُ ليهدأَ ويسكن.

خرجت أمل من غُرفةِ الاستحمامِ وهيَ تضعُ المنشفةَ على

شعرها بعدَ أن استحمت ونظرت باتجاهِ غُرفتها لتجدَ أنَ بابها مفتوحٌ، فخشيت على ابنها من يارا واتجهت مُسرعةً نحوها.

غادرت أمّ راني واتجهت أم جورج نحوَ غُرفةِ يارا، فنظرت إلى غُرفةِ جورج التي كانت تقعُ قبلَ غُرفةِ يارا بالنسبةِ إلى البابِ الخارجي لترى أملَ وهيَ تأخذُ طفلها من يارا بقوة ثُمَّ نظرت أمل إلى يارا التي استغربت تصرفها، وقالت لها وهيَ خائفةٌ ومُرتبكة: أرجوكِ لا تقتربي من طفلي مرةً أُخرى.

خرجت يارا من غُرفةِ أمل محطمةَ الفؤاد مكسورةَ الخاطر وحاولت والدتها التي كانت تقفُ عند الباب أن تُهدّىء من روعها لكنها لم تستمع لها ودخلت إلى غُرفتها وأقفلت البابَ خلفها.

غضبت الوالدةُ من أمل غضباً شديداً وأخذت تبكي وهي تقولُ لها: ألا يكفيها ما بها لماذا فعلت هذا؟ لماذا جميعكم تؤذونها، إنها تحبكم جميعاً؟.

أحست أمل بالذنبِ لما فعلتهُ فخرجت من غُرفتها وطرقت بابَ غُرفةِ يارا لكنها لم تفتح لها فأخذت تعتذرُ وهي واقفةٌ خلفَ البابِ راجيةً منها السماح.

كانت يارا ترتجفُ من شدةِ البكاءِ والحزنِ الذي أحست بهِ؛ فلقد كانت تعتبرُ أمل شقيقتها ولم تتوقع منها يوماً أن تتصرفَ معها هكذا، كانت تتذكرُ علي الذي كان دوماً يقفُ إلى جانبها، في حزنها قبل فرحها، فلقد ترك رحيلهُ فراغاً روحياً كبيراً في بقايا روحها المعذبة.

حاولت والدتها أن تقنعَها بأن تفتحَ الباب لكن دون جدوى، فإحساسها بأنها قد أصبحت مؤذيةً وغير مرغوب فيها بالنسبةِ إلى أقربِ الأشخاصِ إلى قلبها كان يؤلمها.

***

وفي صباحِ اليومِ التالي باكراً نزلَ راني من إحدى الحافلاتِ المارةِ بقريتهِ وقد استعادَ شكلهُ القديم بعد أن حلقَ لحيتهُ الطويلة واشترى ملابسَ كالتي كان يرتديها سابقاً مُتخلصاً من الملابسِ السوداءِ التي كانت تجعلُ حياتهُ كلونها، أخذَ يمشي نحوَ منزلهِ مُتلهفاً لرؤيةِ يارا ووالدتهِ وهو يستنشقُ نسيمَ قريتهِ العليل الذي كانَ يبعثُ في نفسهِ الحياة ويتأملُ منازلها التي كانت تشعره بالحبِ والطمأنينةِ.

وصلَ إلى أمامِ منزلهِ ومنزلِ يارا وأخذَ يطرقُ بابَ المنزل وهوَ ينظرُ إلى نافذةِ غُرفةِ يارا ودقاتُ قلبهِ تتسارعُ من الفرحِ والأملِ، فتحت والدتهُ باب المنزل فنظرت إليهِ ووقفت أمامهُ دونَ أن تقوى على الحركةِ من دهشتها، اقتربَ منها وعانقها فعانقتهُ وأخذت تبكي فرحةً وتشكرُ الربَّ الذي أعادَ إليها ابنها بعدَ طولِ غياب، كانَ عناقاً طويلاً كانت فيهِ الأمُ تنظرُ إلى عيني ابنها باستمرار، لتصدقَ أنَّ هذا كانَ حقيقياً وأنَ ابنها من كانَ بينَ ذراعيها، ثُمَّ أدخلته إلى الداخلِ وكانت تعاملهُ كطفلٍ صغيرٍ من شدةِ فرحها بهِ، وقالت: ابني حبيبي سأعدُّ لك الفطور.

راني: لا يا أمي، أريد أن أذهب إلى منزل خالتي أم جورج أولاً.

الأم: يا روح والدتك، إن الوقت مبكر أظنهم ما زالوا نائمين... اجلس واسترح سنذهب لاحقاً.

راني: كيف حالُ يارا؟.

ارتبكت وأجابت قائلة: إنها بخير.

لم تكن تعرفُ أنهُ يعلمُ بأنها قد تزوجت وخشيت أن تخبرهُ بذلك فتحزنهُ، أما هو فقد كانَ يظنّ أنها قد أخبرتهم بكلِ شيءٍ وأنها كانت أسيرتهُ.

***

استيقظت أمُ جورج واتجهت نحوَ غُرفةِ يارا، أخذت تطرقُ الباب (افتحي يا ابنتي أتوسلُ إليكِ... افتحي أرجوكِ) لكن دونَ أن تجيبها أو تفتحَ لها، ثُمَّ قررت الذهابَ إلى منزلِ أم راني لتطلبَ منها أن تأتي معها إلى منزلها وتحدثها لتفتحَ الباب، فلقد كانت تكنّ لها معزة خاصة في قلبها لأن راني قد أوصاها بها.

***

دخلَ راني إلى غُرفتهِ وأخذَ يتأملها، فلقد كانت على حالها وكأنهُ قد غادرها بالأمس. استلقى على سريرهِ ليجدَ الصندوقَ الصغير في جوارهِ ففتحهُ ليرى جديلةَ يارا فأخذَ يعانقها ويقبلها، ثُمَّ وضعها على صدرهِ وأمسكَ خاتمَ الخطبة وأخذَ يتأملهُ ويتذكرُ كم كانا سعيدينِ في حفلة خطبتهما وقالَ في نفسهِ وهو ينظرُ إلى الخاتم: «أعدكِ أن أعوضكِ عن جميعِ لحظاتِ الحزنِ والفراق، وأن

أجعلكِ سعيدةً أكثرَ من قبل، سوفَ أقيمُ لكِ حفلة زفافٍ أُنسيكِ فيها كُلَّ الألم».

أمسك الورقة التي كانت داخل الصندوق والتي كتبت له يارا فيها (سلام على من ذهبوا ولم يتركوا لنا من نفسنا سوى الحطام، سلام عليهم كيف غادروا كيف هجروا كل شيء إلا قلوبنا وقلّ في وصف حبهم الكلام، سلام على أيامنا وأحلامنا وحطامنا من قلبي كل السلام إلينا كيف كنا وكيف أمسينا.... لقد قتلتني يا راني).

حفرت هذه الكلمات الحزن في قلبه نظراً إلى الجرح العميق الذي أحدثه في قلبها حين تركها، لكنه لم يرد أن يحزن، كان متفائلاً ليبدأ كل شيء من جديد، وقفَ ينظرُ من النافذة إلى نافذةِ غُرفةِ يارا وعيناه تترقبان رؤيةَ خيالها.

***

طرقت أمُ جورج الباب فاتجهت أمُ راني التي كانت في المطبخِ تعدُّ الفطورَ نحوهُ وقامت بفتحهِ، كانت حزينةً قلقةً على حالِ يارا ابتسمت لها أُمّ راني وقالت والفرحُ يلمعُ في عينيها: لقد عادَ راني.

ردت أم جورج: ماذا!!!!!.

أم راني: لقد عادَ راني وهو الآن في غُرفتهِ، ادخلي... الحمد للرب.

دخلت أمُّ جورج مُسرعة، وفتحت بابَ غُرفةِ راني دون أن تطرقهُ من فرحتها بعودته فالتفتَ إليها وكان لا يزال واقفاً ينظرُ إلى نافذةِ غُرفةِ حبيبةِ طفولتهِ، اقترب منها وأخذت تعانقهُ وتقبلهُ مهنئةً

إياهُ بالعودة (الحمد لله على عودتك يا حبيبي... القرية بأكملها قد اشتاقت إليك يا أجمل شبانها).

جلسا يتحدثانِ بينما كانت أمُ راني تعدُ الفطور وأخذَ يسألها عن يارا قائلاً: كيفَ حالُ يارا، هل تحسنت حالها بعد عودتها من الأسر؟.

ردت أم جورج مُستغربة: مسكينة ابنتي.... هل أخبرتك والدتك بما حلَّ بها؟.

راني: ألم تخبركم هي بشيء؟.

أم جورج: لا، إنَّ وضعها الصحي لم يسمح لنا بأن نُحدثها في هذا الأمر، ماذا حدث؟

راني: أريدُ أن أطمئنَ عليها أولاً ثُمَّ سنتحدثُ بهذا الأمر لاحقاً.

أخبرت أم جورج راني بما حدثَ في الأمس وبأنها قلقةٌ جداً بشأنها.

***

خرجَ من منزلهِ برفقةِ والدتها قبل أن يتناولِ فطوره خوفاً من أن تكون يارا قد آذت نفسها وهيَ مُقفلةٌ على نفسها باب الغُرفة.

فوقفَ مع والدتها خلفَ بابِ غُرفتها وقلبه ينتفض من الشوق، طرقت أم جورج البابَ قائلة وهيَ فرحة: افتحي يا حبيبتي، لقد عادَ راني ويريدُ رؤيتكِ... افتحي إنهُ هُنا.

ردت يارا بصوتٍ باكٍ: لا تخدعيني كي أفتحَ الباب، إن راني لن يعود، إنهُ يكرهني الآن.

فقالَ راني بصوتٍ حزينٍ متُلهفٍ: وماذا لو عاد؟ وماذا لو كان يُحبُّكِ؟

لم تصدق يارا ما سمعت ففتحت البابَ والدموعُ تغرقُ خديها فاقتربَ منها راني وعانقها عناقاً حميماً، فقد كانَ كشخصٍ ظمآن في صحراء قد وجدَ الآنَ بركةَ ماءٍ، فأبعدتهُ عنها برفقٍ ونظرت إلى عينيه قائلةً ودموعها تتساقطُ وبالكادِ تخرجُ من فمها الكلمات: هل حقاً تُحبني؟

مسحَ دموعها بكفيهِ ثُمَّ طبعَ قبلةً رقيقةً على الجرحِ الذي في جبينها وقالَ: أنا آسفٌ لأجلِ هذا، ليتها كسرت قبل أن أفعل هذا... أنا حقاً أحبكِ ويستحيلُ أن أكرهكِ يوماً.

يارا: أنا حقاً آسفة لما فعلتهُ سامحني، أقسمُ إني لم أكن أدركُ ما فعلت.

راني: لا عليكِ، فأنتِ لدي أهمُّ من أي شيء.

فاقتربت منهُ يارا وعانقتهُ وأخذت تطبعُ قبلاً رقيقةً على خديهِ.

كانت أم جورج تقف مصدومة لا تفهم عمّا يتحدثان، حملها بين ذراعيه وتوجه بها إلى منزله كي تتناول الطعام معه وهي تبكي فرحاً.

***

لم يستطع عقل رهام تحمل خسارتها لزوجها الذي أحبته لكنه لم يكن من حقها يوماً، وكذلك خسارتها ابنتها وتلقيها خبرَ وفاةِ والدها في إحدى المعارك، كانت ضحية أخطاء القدر الذي أعطاها

شيئاً لا يجب أن يكون ملكها ثم سلبها إياه، أخذت تجوبُ شوارع قريتها وهيَ توقفُ المارة تسألهُم: هل رأيتُم أحمد؟... هل رأيتُم والدي.... لقد قتلت تلك الفتاة طفلتي؟.

في اليوم الذي لم تخرج رهام من المنزل دخلت أم أيمن إليها لتطمئن إلى حالها، لتجدها قد شنقت نفسها. كان موتاً جسدياً لا يعادل ألم الموت القلبي والروحي الذي عانته أخيراً، فقد كاد قلبها يخرج من عينيها من شدة ألمها الروحي.

***

بعد فترةٍ أقيمَت حفلة زفافٍ ليارا وراني بعد أن تحسنت حالها، كان هذا اليوم كالمعجزةِ التي تحققت بعد كل الظروف التي مروا بها، راني ينظرُ إليها كحلمٍ محقق، يتشبث بها كطفلٍ صغيرٍ وهي في قمةِ سعادتها لكن غصات قلبها بسبب مصرع علي الذي فارق حياتهُ في سبيلها لم تنتهِ.

قبّلها راني من جبينها وهمس في أذنها وقلبه يتلوى لهفة من رائحة عطرها الفواحة: ونحن في أقصى درجات الشجار لم أكن أجيد إلا أن أحبك.

عانقته قائلة: من بسعادتي بعد أن امتطيت قلبي وهرعت من بؤس الحياة إليك!!.

راني: أحبك.

يارا: من أنت يا رجل وقد جئت من حطام الذكرى؟ كيف تسنى لك أن تعود بعد أن أرغمتنا الطرق على الافتراق؟

عدت من غياهب الماضي لتسرقني من نفسي مجدداً وتعيد طفولة قلبي التي رافقتك وفقدت أملي بعودتها.

كيف كان لك أن تهرب من سجون البعد وأن تتجاوز شمس النسيان دون أن تحرقك أشعتها التي أشعلها جفاء المسافات؛

كيف تجاوزت ظلام الظروف الدكناء وعدت إلي من دون أن تضل طريقك أو تخضع لأحكام سوادها؛

من أنت أيها الرجل الذي انتشلني من بقايا نفسي ليحول تلك البقايا إلى أمل نمتطيه معاً نحو عالم يحكمه الحب وينيره الوفاء ويبعد عن طريقه كل صعاب الحياة.

***

(تناولت جانباً من حياة وطن سعوا إلى تفريقه، لنتذكر دوماً أن كلنا من تراب أفلا يحنُّ إلى التراب على التراب؟؟؟!!!.).

(من رحم الألم تولد الحكاية)

إهداء إلى أمهات الشهداء:

لا تبكي فدموعكِ العذبةُ توجعُ قلبهُ
لم يكن يوماً لبكائكِ راجياً
صوتُ الشهيدِ لو علا من قبرهِ
لملأ السماءَ راجياً إرضاءكِ
ما كان يوماً عن ديارهِ غائباً
فالروح تبقى أما الجسدُ ففانٍ
وتجوبُ طرقات المدينةِ كل ليلة
لتفقد الأحوالِ والأحبابِ
لا تبكي فتجعلي روح الشهيدِ كئيبةً
فيموت بعد الموت موتاً ثانياً